لا أحد يربّي القطط المدينة

محمد الحاج

مجموعة قصصية




الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

محمد الحاج

لا أحد يرثي لقطط المدينة

الكتاب: لا أحد يرثي لقطط المدينة (قصص)
تأليف: محمد الحاج
تم إنتاج هذا العمل بمنحة من المورد الثقافي
الغلاف: محمد صلاح
عدد الصفحات: 160 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-008-0
رقم الإيداع: 2017/27133
الطبعة الأولى: 2018

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

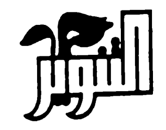
لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

محمد الحاج

لا أحد يرثي لقطط المدينة

قصص





هويدا منير وياسمين زهدي

منكما وإليكما

يوم مع تونة

بحلول سن الخامسة عشر كنت قد قرّرت أنني لن أقضي ما تبقّى من نهاراتي في غرف مغلقة. في ذهني صورة غائمة لنفسي صبيًا، أسترق النظر إلى خارج قاعة الدرس حيث يزدحم كوبري أكتوبر بصفوف لا تنتهي من السيارات، تصادف أن كان أقربهم إليّ تاكسي في مقعده الخلفي زوج، فتى وفتاة - خمّنت من ملابسهما أنهما من جمال عبد الناصر الثانوية لغات - يسرقان قبلة سريعة. مزّق الأمر قلبي. نظرت حولي حينها إلى وجوه زملاء الدرس الكالحة ثم فكرت: هذان الاثنان يعرفان شيئًا عن النهار لا أعرفه؛ يعرفان ما وقع قبلة تُسرَق في وضح النهار.

سأتم ثلاثين عامًا الشهر المقبل وما زال قراري معلقًا. لم أهرب يومًا من المدرسة لأن أمي لم تكن لتدعني، لم أتغيّب يومًا عن العمل لأن نفسي لم تكن لتدعني، والآن أعلم أن النهار أثمن من أن يهدر في قاعات الدروس وغرف الاجتماعات.

في صدر القاعة كان رامي، مديري، واقفًا ليشرح أهداف السنة الجديدة.

- إحنا لسّه شركة صغيرة والمنافسة في سوق الأونلاين مش مناسبة لحجمنا، وعشان كدا إحنا مضطرين نتجه لنوع تاني من الخدمات اللي السوق محتاجها وبتكلفة أقل.

كان كل ما يشغل ذهني في هذه اللحظة هو الركض... الركض خارج الغرفة، خارج المكتب، خارج المبنى، خارج العالم. كانت الفكرة ذاتها قد زارتني قبل عام ونصف، وإن كان في ظرف مختلف. حينها قدمت أوراقي طلبًا لإجازة، ولما لم يُقبل طلبي، استقلت. نظرت في مدخراتي بعد سنوات ست من العمل في الإعلانات، وقدّرت أنها ستكفيني حتى أنهي كتابة فيلم كانت تداعبني قصته منذ سنوات. إلا أن مدخراتي نفدت قبل أن أنهي الفصل الأول من الفيلم. السفر وجلسات التحليل النفسي يكلفان الكثير من الأموال على أي حال. بعد مضي ثلاثة أشهر بدأت البحث عن عمل من جديد. في ذلك الآن حادثني رامي ليخبرني أنه بصدد تأسيس شركة صغيرة لإدارة المحتوى الإبداعي على الإنترنت. في البداية كانت الشركة مهتمة بإنتاج محتواها الإبداعي الخاص والسعي وراء إقرار نموذج جديد لإدارة التمويل في السوق. كنت أعتقد أنها فكرة حمقاء نوعًا؛ كيف سنتجاوز وكالات الدعاية للحصول على تمويل مباشر من المعلنين؟ لكن رامي طمأنني أن الأمر ممكن وأنه شخصيًا تلقى عروضًا كثيرة من شركات اتصالات تطلب منه توفير هذا النوع من المحتوى. عند نهاية العام كان قسمي - قسم المحتوى الإبداعي - هو القسم الأكثر استنزافًا للموارد والأقل إدرارًا للدخل. منذ اطلعت على التقرير السنوي ظللت أنتظر الضربة، وها قد حان موعد تلقّيها.

- إنتو أكيد قريتم التقرير السنوي، صح؟ قريته يا طارق؟

رفعت التقرير أمام وجه رامي متململًا.

مرت عشرة أعوام منذ التقينا أنا ورامي للمرة الأولى كمدوّنين على

ساحة الإنترنت. لم نصبح أصدقاء حقًا إلا بعد سنتين من تعارفنا. خلال سنوات الجامعة كنت مداومًا على زيارة الإسكندرية أسبوعيًا لألتقي بفتاة عرفتها عبر الإنترنت. كنت أحبها. أعني... من يقطع هذه الرحلة أسبوعيًا دون سبب قوي؟ في صيف ذلك العام أخبرتني أنها ستُزف إلى زميل عمل. أوجعني قلبي، لكنني قررت اغتنام الشهور الأخيرة قبل زواجها في رؤيتها قدر ما أستطيع إمعانًا في وجع القلب. في ذلك اليوم من شتاء ٢٠٠٨، كان من المفترض أن ألتقيها في الثالثة، غير أن أمرًا حال دون أن تتمكن من مغادرة عملها لينتهي بي الحال لملاقاتها لخمس دقائق عند أطراف مكتبة الإسكندرية. كنت بائسًا، وكان الأمر أسوأ من أن أغادر على هذا الحال، وفي محاولة يائسة لتجاوز بؤسي حادثت رامي. رد بحفاوة أدهشتني. فيما بعد سأدرك أنه لا خصوصية في تلك الحفاوة، لكنها تظل حفاوة من نوع ما. دعاني لألاقيه في الشيخ شعبان، وأمام حماسته البالغة لم أجد بُدًا من الذهاب رغم كراهيتي للسمك. حينما وصلت كان رامي برفقة مجموعة من أصدقائه، حاولت المغادرة سريعًا بعد الوصول لكنه -وقد لاحظ حالتي- استبقاني بلطف ثم أخبر الجمع أنه سيفترق عنهم لساعة قبل أن يلتحق بهم في يوناني الإبراهيمية. في طريقنا مشيًا إلى البورصة سألني إن كنت بخير. أمسكت عن الإجابة حتى بلغنا المقهى، وهناك أخبرته كل شيء. أصغى رامي صامتًا لما يزيد على الساعة ثم هز رأسه في أسى حقيقي وقال: «معلش.» كانت لحظة تافهة، ولكنه عناها حقًا.

- الأرقام في التقرير بتوضّح إن إحنا محتاجين نتوسّع في الاستشارات التقنية في الوقت اللي فيه قطاعات تانية لازم تنكمش.

وددت لو أغادر؛ كنت أعلم ما سيُقال ولم يكن ليعجبني بحال. الغرفة باردة أكثر مما يجب ومثانتي ممتلئة. هممت بالقيام فأصدر الكرسي صريرًا. التفت لي رامي والتقت عيني بعينه المحذرة، لكني كنت قد

تجاوزت نقطة ما بداخلي فاستمررت بدفع جسدي بالكامل إلى الأمام ناهضًا.

- معلش يا جماعة، مضطر أروح الحمام. كملوا إنتم.

في الحمام كان أحدهم يغني، يغني حقًا، من داخل إحدى الكبائن. كنت في مزاج سيئ وكدت أنهره -كان موقعي الإداري يؤهلني لأن أفعل ذلك دون أي عواقب- لكن شفقة ما اجتاحتني في تلك اللحظة تجاه نفسي. تبيّنت أني أحتل موقعًا حزينًا في سلم القهر المؤسسي. نظرت إلى وجهي في المرآة؛ كان منتفخًا إثر اضطراب نومي، لكن انتفاخه لا ينفي حوله في الآن ذاته. الصلع الذي يغزو رأسي من الجانبين والشعر الأبيض في سالفيّ وفوديّ؛ نظارتي السميكة، وبذلتي السوداء الرسمية المتناقضة مع الأساور السيناوية في يدي. لا أكاد أتبيّن ما كنت عليه قبل عامين فقط. اللعنة! سيغلقون قسمي. وجدت نفسي أقرب للبكاء، فدلفت للكابينة الأقرب، وأغلقت الباب.

في الكابينة بدأت دموعي تنهمر. في البداية فكّرت: «سأتأخّر عن العودة»، فتعالى نشيجي. ثم فكرت أنه لا بأس، لن أعود للاجتماع وليكن ما يكون. كنت قد رتّبت خططي جميعها على بقائي في الوظيفة لعام آخر. بقي عام ونصف حتى انتهي من دفع أقساط السيارة الجديدة، ولن أتمكن من العودة إلى بيت أمي بعد زواجها الثاني. جعلت أهدّئ نفسي؛ لا بأس، لا بأس. سأجد وظيفة أخرى. في العام الفائت تلقيت عرضًا جيدًا من شبكة تليفزيون محلية، سأجد رقم فتاة الموارد البشرية بالتأكيد على الموبايل.

تملّكتني حمى مفاجئة. حاولت جاهدًا أن أتذكر اسم الفتاة، كنت متأكدًا من أنني قد سجّلته. نعم، فاتن كان اسمها. أخرجت الموبايل وهاتفتها غير عابئ بحقيقة أني جالس في كابينة حمام ببدلة رسمية على مقعد مخصص

أساسًا وبشكل مطلق للتبرّز، أتى صوت رنين الهاتف بأغنية لمحمد عبد الوهاب. «يا دنيا يا غرامي، يا دمعي يا ابتسامي، مهما زادت آلامي، قلبي يحبك يا دنيا.» اندهشت لحقيقة أن فتاة موارد بشرية تضع كول تون «يا دنيا يا غرامي»، لكن سَكينة مفاجئة غمرتني قبل أن أستغرق في الفكرة. نزل صوت عبد الوهاب على قلبي مهدّئًا وأنيسًا. أغلقت الخط. لا داعي للخطو السريع. سيأتي كل شيء بميعاد وعلى مهل.

خارج الحمام وجدت مديري الأقسام يخرجون واحدًا تلو الآخر من الغرفة؛ انتهى الاجتماع على ما يبدو. دلفت إلى الحمام ثانية كي لا ألتقي رامي في خروجه، لكن باب الحمام انفتح ودلف منه رامي، وأغلقه وراءه في سرعة.

- إنتَ غبي؟

- رامي، بقولك إيه، إنتَ مديري ودا شغل، خلينا نلتزم بالخطوط دي مبدئيًا عشان أيًا كان اللي حيحصل نفضل أصحاب بعدها.

- معلش جاوب عليَّ بس، إنتَ غبي؟ بشكل نظري تمامًا.

- لا يا رامي أنا مش غبي.

- طب ولما إنتَ مش غبي، إيه اللي عملته دا؟ بتسيب الاجتماع وتقعد في الحمام؟ إنتَ غبي؟

- يا رامي...

- عشان لو كنت قعدت كنت فهمت إن مافيش حاجة حتمسّك.

شُدهت للحظة.

- مافيش؟

- مافيش.

كنت في حيرة من أمري، هل أحتضنه أم ألقي نفسي على الأرض

باكيًا؟ لأسبوع تواردت الأنباء ولم أجرؤ على سؤاله مباشرةً خوفًا مما سأسمع.

- يعني تمام القسم حيفضل شغال؟

- مين قال كدا؟

- إنتَ لسة قايل!

- لأ يا طارق. إنتَ قاعد، هم ماشيين.

شُدهت مرة أخرى. فكرت لحظيًا في وجه حسام. كنا قد طوّرنا مسلسلًا تليفزيونيًا يعتمد في جانب كبير منه على تطبيقات السوشيال ميديا. كانت فكرة ذكية وكنّا في غاية الحماسة. جلسنا في مفاوضات مع عدة عملاء طلب كل منهم تعديلات لا تناسب ما رأيناه جوهر المشروع. في النهاية انسحبت العروض واحدًا بعد الآخر حتى بعد قيامنا بالتغييرات اللازمة. أخبرني أحدهم مرة أن فكرتنا ممتازة لكن التمويل المطلوب أكثر من العائد المتوقّع من شريحة المستهلكين التي يخاطبها العمل. أي شريحة مستهلكين؟ هل تركت الإعلانات لأسمع هذا الهراء مرة أخرى؟ لم يكن لنا شأن بشرائح المستهلكين. كنا مجموعة من الكتّاب اليائسين الذين اتجهوا إلى العمل في الأونلاين. والآن ها هي مشاريعنا الصغيرة تذوي أمام أعيننا.

- ماتسهّمش يا طارق، العيال دي زي الفل وحيلاقوا ألف مين يشغلهم.

- قشطة يا رامي، خلينا نتكلم بكرة.

تجاوزت رامي متجهًا إلى مكتبي في آخر الشركة. في التخطيط المعماري للشقة، كانت هذه الغرفة الصغيرة في الأساس غرفة المربية، الأمر الذي أثار دومًا في ذهني مقارنات عديدة حول واقع مهامي الوظيفية.

ؤ

في المكتب جلست أحدّق في فراغ الشاشة متسائلًا عما يجب عليّ فعله الآن. كنت أحاول ترتيب ذهني حين دلف حسام إلى المكتب. كان يحمل في يده كيسًا من السوداني المملّح عرض عليّ بعضه. رفضت بينما أتشاغل بكتابة أشياء غير مهمة على الإطلاق على لوحة المفاتيح، متفاديًا الدخول في أي محادثات جدية. إلا أن ذلك لم يقنع حسام، فجلس على الكرسي أمامي مسلّطًا عينيه على وجهي في ثبات. في النهاية لم أجد مفرًا من النظر إليه.

- ها؟

- بصيت في الإيميلات؟

- إيميلات إيه؟ إيه اللي حصل؟

لم يطاوعني لساني. نظرت إليه وبادلني النظر، رأيت ملامح وجهه ترتخي ببطء من اللهفة إلى اليأس الخاطف ثم التحفظ. استرخى واضعًا قدمه على كرسي آخر أمامه كأنما حرّره علمه بأنه سيفقد وظيفته من أي رغبة في الالتزام.

- مش مشكلة، حنلاقي شغل تاني.

لم أرد. كنت أفكر فيم سيقوله عني حينما يعلم أنني باق في الشركة، كنت أفكر فيمَ سيقوله عني باقي مرؤوسيني. أحدهم خريج حديث من كلية الطب، قدم استقالته من الوزارة بعد ستة أشهر من العمل بدوام جزئي ليظفر بوظيفة بدوام كامل؛ الآن لا كامل ولا جزئي، وسيجد الفتى نفسه تائهًا بين يوم وليلة. أفقت من خواطري لأجد حسام لا يزال ناظرًا لي عبر المكتب.

- إنتَ مش ماشي، صح؟

- مش عارف.

- بس رامي قال لك إنك حتقعد.

- آه.

- ما تحسش بالذنب طيب...

- مش حاسس بالذنب.

- أمال مناخيرك بتنزف ليه؟

كان محقًا. نظرت إلى قميصي، كانت عليه نقطتان من الدماء. وضعت يدي على أنفي ورفعت رأسي بينما بحثت يدي الأخرى عن علبة المناديل المختبئة على مكتبي تحت أكوام الورق. تحرك حسام ببطء مخرجًا يده من جيبه بمنديل، ثم أسند رأسي بيده وحركها للأمام بينما يضع يده الأخرى بالمنديل على أنفي، وأعاد النظر في عيني.

- إحنا كنا سكرانين، والناس وهي سكرانة بتقول كلام كتير مش مهم. فما تقلقش، مافيش حاجة.

قبل أسبوع، كان حسام قد مر بمكتبي ليجدني مغمومًا. كنت قد قرأت لتوّي التقرير، وكنت أعلم جيدًا ما يجب عليّ توقعه. أصر حسام أن يصطحبني إلى بار قريب لنسهر، وبعد كأسين من الأوزو المصري الرخيص اعترفت له بما قرأت. وجم حسام قبل أن يقابل صديقًا كان في طريقه لحفلة صديقة ألمانية في شارع شريف، اختلى به للحظة قبل أن يعود ليأخذني معه. في الحفلة قابلت جماعة من الأصدقاء الآخرين، وقفت إلى جوارهم بينما وقفت إلى جواري حسناء ألمانية تبدو حديثة العهد بالقاهرة. سألتني عمّا أعمل أخبرتها كذبًا أنني كاتب سيناريو، سألتني إن كنت أحب ما أعمل، أجبت بتشبيه مبتذل: «الكتابة كالطهي، قد تلتزم بالمقادير لكن لا ضمانة لجودة عملك.» رفعت حاجبيها منبهرة. سألتها إن كانت تجيد الطبخ، أجابت أن نعم، أخبرتها أني أجيد الأكل، ابتسمت. قلت لها إنني أود لو دعتني إلى العشاء، قالت إنها قد

ترغب في ذلك. كنت أستمع إلى نفسي بانزعاج، وأنا أعي جيدًا وقع كلماتي. أصابني صمت عميق ليحل على وقفتي والحسناء الألمانية غرابة لم تمحها حقيقة كوني سكرانًا في الواقع. مر حسام لينقذني، همست في أذنه أن بطني يؤلمني بشدة وأنني بحاجة لدخول الحمام، وفي الحمام رقدت لكي أقيء ما في بطني من كحول وبقايا ساندويتش رديء من هارديز بينما جلس بجواري على طرف حوض الاستحمام يحاول إشعال سيجارة. حينما انتهيت، ساعدني في تنظيف وجهي. أخبرته أنني سأرحل، خرج معي. أمام الأسانسير أخبرته أنه لا يجب أن يقلق. سأحارب من أجل استمرار القسم، وإن لم أنجح، سنرحل جميعًا.

كانت الشمس تتجه إلى الغروب وكنت أخشى الخروج من المكتب قبل التأكد من أن الجميع قد رحلوا؛ لم يكن بوسعي احتمال لا غضبتهم ولا شفقتهم. كنت أفكر في ما يُقال عني خارج حدود غرفتي، وأفكر ربما ليس الأمر بهذه الأهمية، قبل أن أعود للتفكير أن الأمر مهم، ومزعج. قطع رنين هاتفي حبل أفكاري. نظرت إلى الهاتف في ضيق فوجدتها فاتن، فتاة الموارد البشرية التي حادثتها نهارًا. امتدت يدي لتُصمِت الموبايل، غير أن هاتفًا ما دفعني لأن أرد. رفعت الهاتف إلى أذني.

- سنة ونص يا وسخ؟

أحا! كنت أعرف الصوت. لم أفهم، لم أدرك الرابط، لكني كنت أعرف الصوت.

فكرت أن الركض في الشارع عاريًا أهون مما أنا فيه الآن، فكرت أنني أحمق لا أحسن التدبير، فكرت أن أنكر نفسي وأدّعي أن هاتفي قد سُرق. لكن في النهاية كنت أعرف الصوت وكانت صاحبة الصوت تعرفني.

- إنتَ متّ يا بجم؟

- إزيك يا تونة؟

- تونة إيه وسلمون إيه يا زفت! سنة ونص؟

كنت قد توقّفت عن محادثة حماتي بناءً على نصيحة طبيبي النفسي حينها؛ بعد انهيار عصبي مصغر كان أول ما نصحني به «انقطع عن الماضي» غادرت شقتنا المشتركة وبعت الأثاث، سافرت، داومت على تدريبات السباحة، وقبل كل ذلك، توقّفت عن الحديث إلى تونة.

- وحشتيني يا تونة.

- ما تنافقنيش أنا مابقيتش حماتك خلاص.

- بس إنتِ وحشتيني بجد.

ساد الصمت لحظة، بدا وكأنها قررت أنه لا جدوى من المزيد من التأنيب. لطالما كانت رقيقة.

- أمك عاملة إيه يا ولا؟ بطلت تكلمني هي كمان الوسخة.

- معلش يا تونة، أنا اللي قلتلها.

- ليه يا بن نجلا؟

- عشان كنت تعبان شوية يا تونة.

كنت أسمع صوت تنفّسها آتيًا من الناحية الأخرى. كانت تعلم، وإن كانت تعلم فقد علمت فاطمة من قبلها. من أخبرها؟ لا بأس في كل الأحوال، تلك أمور من الماضي. قد تجاوزتُ فاطمة وانفصالنا المؤسف وما أعقبه من رغبة في التنكيل تبادلناها بلا خجل، أربكتني بأكثر مما أربكتها على ما يبدو. والآن كل منا في عالمه.

- طب وإيه اللي فكرك تكلمني النهاردة؟

هل أخبرها؟ كنت فيما يبدو قد حذفت رقم فتاة الموارد البشرية اعتقادًا مني أنه رقم هاتف فاتن حماتي. لا أتذكر ملابسات الأمر لكنها ربما كانت نوبة غضب لا إرادية من تلك التي ظلت تزورني بإيقاع متواتر

على امتداد أشهر. حادثتها بالخطأ، لكن راحة ما اجتاحتني؛ كأن شرخًا في حياتي لم يعد يهدّدني. كأن أمرًا طرأ فقمت من ركن غرفتي باتجاه قطّ جبلي فلفعته بملاءة واحتضنته ممتنًا لكرم الوجود.

- ولا حاجة يا تونة، وحشتيني بس.

- طب تعالى اتعشّى معايا النهاردا، لو ماعندكش مشكلة.

كانت فاتن تحبني، وكنت أحبها، لكنني أبغضتها لاستدراكها الأخير. الآن لم يكن هناك من بُد سوى المضي قدمًا في أمر لا أعرف إلى أين يقودني، وإلا فلا يزال «عندي مشكلة» بعد عامين من الطلاق. لم أكن لأطيق أن تحكي فاتن لفاطمة عما جرى لتنهيه بأني اعتذرت.

- آجي كمان قد إيه؟

- سبعة كويس؟

- ماشي، سبعة.

لعام كامل قبعت في مكتبي على بعد شارعين من منزل حماتي السابقة، ولم يحدث أن صادفتها -أو زوجتي القديمة- ولو لمرة واحدة. كان الأمر عجيبًا. في بداية العام كنت أتفادى اللقاء بجنون، قبل أن أدرك أنه على الأغلب لن يحدث. ولكني أخيرًا كنت أتحرّاه سرًا؛ أتمهّل حين العبور أمام مدخل الشارع، أتلكّأ حين شراء حاجيات المكتب الأسبوعية من البقال القريب من البيت، أمر مساءً بالسيارة لعلي أصادف سيارة فاطمة. لا شيء سوى قدر يعاند ورأس صلب. والآن أوقعني قدري في ما لم أحسب.

انصرفت من المكتب غير عابئ بإيميلات العمل المتأخرة التي كنت قد انتويت الرد عليها جميعًا اليوم، لا فائدة تُذكر على أي حال. خارج باب المكتب في الطرقة، كان زميلان من قسمي يدخنان. ضغطت زر استدعاء المصعد بينما تخترقني نظراتهما. حرص أحدهما أن يسمعني

رأيه في أحد المديرين «المعرّصين» الذي سيقبل أن يصفّي قسمه بينما يبقى هو، لأشهر على أي حال، قبل أن يلقوا به خارجًا هو الآخر حينما يدركون خواء ذهنه. لماذا لا يأتي المصعد؟ هممت أن أتجه إليه لألطمه، لكن حجمه أثناني. فكرت أنه لن يكون من اللطيف أن تراني فاتن للمرة الأولى بعد عامين بآثار لكمة في الفك. أفرغت غيظي في الدق العنيف على باب المصعد داعيًا البواب لغلق بابه المفتوح قبل أن أتجه إلى السلم مستغلًا الفرصة في تسريب إهانة سريعة إلى الزميلين. «عالم بنت وسخة» قلت من بين أسناني بصوتٍ عالٍ.

في الشارع أخذت أفكر إن كان من الواجب أن أشتري حلوى لما بعد العشاء أم شرابًا. كنت قد أقلعت عن الصودا بعد الطلاق ولم تكن فاتن تفضلها على أي حال، كما أن إصابتها بالسكري كانت تمنعها من تناول الحلوى، لكنني فكرت في أنني قد أبدو بخيلًا إن لم أشترِ شيئًا ما. مررت بحلواني فاطمة الأثير بالقرب من كلية تربية موسيقية واشتريت كيلوجرامًا من الكنافة العثمانية، لعل فاطمة تمر فتجدها.

في مشيتي المنتبهة في شوارع الزمالك أدرك أن شوارع الجزيرة الصغيرة تمر بجسدي. هنا تلقيت أول دروس البيانو. خرجت مع فتاة وحدنا للمرة الأولى. وقفت أمام لوحة لمحمود سعيد وزلزلني نهد موديلها العاري. مررت بمكتبة فأوقفتني فتاة لا تعرفني لتخبرني أنها معجبة بقميصي. أكلت كنافة عثمانية. عملت لعامين على سيناريو في إحدى شققها العالية ومررت بإحباط عدم إنتاجه في شقة أخرى بصحبة فتاة لبنانية ثقيلة الظل والوزن. كان لكل خطوة أخطوها فيها ذكرى عنيفة الوطء، والآن لا مهرب على ما يبدو من استمرار غزل المزيد من الذكريات بأسفلت طرقاتها.

على باب العمارة استقبلني البواب مستوقفًا إياي بصوت عال قبل أن

يتبيّن من أنا. أخبرني بآلية أن مصعد الأدوار الفردية معطل وسيتعيّن عليّ أن أستخدم مصعد الأرقام الزوجية لأهبط بعدها على قدمي إلى الطابق المنشود قبل أن يعود لما حسبته فراشًا ساخنًا أو مسرحية قديمة.

في المصعد اجتاحني رعب قديم، وقفت متشاغلًا عنه بتسوية شعري. والتأكد من هيئتي. كنت ألبس ربطة عنق بسبب اجتماع رؤساء الأقسام، نزعتها قبل أن أتذكر أن ياقة القميص معوجّة قليلًا باتجاه عظمة الترقوة. ربطتها ثانية، لم تعجبني الربطة، نزعتها مرة أخرى وأودعتها جيب البذلة الداخلي، بدا منتفخًا من الخارج. ربطتها. للمرة الأخيرة ربطتها، وعلى زجاج مرآة الأسانسير مِلت برأسي مفكرًا. ربما كان قراري العودة إلى ذلك المكان هو أسوأ قرار اتخذته في حياتي.

أمام الباب كانت تونة بانتظاري. لا أعلم كيف عرفت بوصولي، رغبت في السؤال، وفي اللحظة ذاتها تعثرت على السلم بينما أنظر لها في ثوبها المنزلي واقفة أمام باب شقتها تنظر لي بينما أهبط رويدًا حاملًا كيلوجرامًا من الكنافة العثمانية. تمالكت نفسي بسرعة، فتحت ذراعيها فدخلت في جسدها الضئيل مضمومًا، طفلًا نوعًا ما. كنت أحب فاتن كأمي، أعني، كنت أحب فاتن كأم. كنت أنظر لعلاقتها بفاطمة وأفكر إن كانت هناك ابنة محظوظة حظ فاطمة بفاتن. فتنت فاتن قلبي بأكثر مما فعلت ابنتها على الأرجح، وإن كان بشكل مختلف جذريًا. في أعقاب الطلاق كنت أحادثها في الهاتف لأبكيها قلبي، كانت تبكي معي ولم يكن هناك الكثير ليفعله أيٌّ منا. في النهاية توقفت مدمى الروح، وفي النهاية تعافيت. وها أنا الآن في حضن فاتن ثانية، تتدافع الدموع إلى عيني، أحاول كتمها ولا أستطيع. تشعر فاتن على ما يبدو فتترك رأسي على كتفها قبل أن تبعدني لتتجه إلى الداخل دون أن تنظر في وجهي، تاركة لي ردهة الطابق خالية لثوانٍ بينما ينطفئ نورها. مسحتُ عيني وأنفي في سرعة وتبعتها.

كانت الشقة تزهو في أضواء قوية كما تحبها فاتن دائمًا. كان ذلك أحد أكبر أسباب ضيق فاطمة بمنزل أمها. لا أركان خفية، لا ظلال، كل شيء واقع تحت نور ساطع لا يسمح بالتخفّي. في منزلنا خلال زواجنا القصير كانت فاطمة تحرص على إبقاء الضوء محدودًا في مساحات الشقة، سامحةً لنفسها بمناطق معتمة في غرفة النوم وعلى مائدة الطعام. كنت أفكر في رعب أن طول عِشرة فاطمة بقططها في بيت أمها قد زوّدتها بقدرة خاصة على الرؤية في الظلام، كان ذلك هو تفسيري الوحيد لقدرتها على الحركة في الشقة ليلًا دون التعثر في شيء، بينما أقضي أنا قرابة الخمس دقائق أبحث عن مفتاح النور في كل مرة ألج فيها من باب المنزل.

- فين مشمش؟

- إدّيته لفاطمة، لو عايزة تعيش لوحدها تاخده بقى تخلي بالها هيّ منّه.

لم أكن أحب القطط إجمالًا، لم يكن بي صبر على الدلال وتقلب المزاج، لكنني كنت على أتم الاستعداد لنفاق مشمش تقرّبًا لفاطمة. لكن القط اللعين لم يكن يقربني، وإن اقتربت منه يخمش يدي ويختبئ تحت طاولة السفرة. حتى علب الطعام الرطب التي اشتريتها له على سبيل الرشوة كان ينتظر حتى أتركها له ليقترب ويأكلها. كانت فاتن تلحظ الأمر وتضحك. في مرة أخبرتني أنه لا حاجة بي لرشوة القط لأن فاطمة تحبني. رشوته وانتهى زواجي على أي حال.

انتبهت في هذه اللحظة أنني ما زلت أحمل طبق الكنافة، فناولته لفاتن. رمقتني بنظرة حنون. كانت تعلم أن الكنافة ليست لها، وكنت أعلم أنها تعلم.

- الأكل جاهز، تاكل دلوقتِ ولّا كمان شوية؟

لم أكن جائعًا ولكني كنت خائفًا من الجلوس إليها مجردًا من أي شيء يمكنني التشاغل به إن أردت تهدئة إيقاع الحوار دون غرابة. كنت أثق في نَفَس تونة في الأكل؛ كانت تطبخ يوميًا لعشرة أشخاص، ترسل طعامًا لفاطمة، للبواب، لعساكر حراسة سفارة المجر أمام منزلها. كانت تغدق على العالم حبًا وكباب حلة.

- أنا بقول ناكل الأول عشان نقعد براحتنا.

حسمت هي الأمر دون تدخلي. تبعتها إلى غرفة الطعام. كانت شقة فاتن تقع في إحدى العمارات القديمة المطلة على نادي الجزيرة من ناحية وعلى النيل من الناحية الأخرى. في المرة الأولى التي دخلت فيها الشقة لأقابل عائلة فاطمة كنت أفكر، ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي سأطأ فيها هذه الشقة، لكن أمرًا ما قمت به راق فاتن فأقنعت أخا فاطمة وخالها وعمها أني ولد صالح. كنت ولدًا صالحًا حقًا، فاتن تعلم كم كنت زوجًا صالحًا لابنتها، لكن قلق فاطمة الوجودي كان أكبر من علاقتنا. انفصلنا حين أدركت أن أسئلتها أكبر مما توفره حياتنا المشتركة من إجابات. في الشهور الأخيرة حاولت أن تقنعني بالإنجاب وكنت أسكتها في غضب. هل يمكن لكائن حي جديد أن يكون الإجابة لحيرتنا حول الغرض من حياتنا؟ كنت ألاحظ الشروخ في اليوميّ وأتعامى، حتى عدت بعد سفرة عمل قصيرة لأجد رسالة تخبرني أنها رحلت في الصباح إلى فيلا أمها في الجونة لقضاء بعض الوقت وأنها ستغلق هاتفها. عادت بعد أسبوع باكية لتخبرني أنها تحبني، قبل أن تطلب الطلاق في صباح اليوم التالي بجنان ثابت. ربّاه، ما أبغض تلك الأيام!

ناولتني أطباقًا وأدوات للسفرة ثم حملت ما تيسّر لها حمله وتبعتني وجلسنا للأكل. كانت متوثّبة حقًا لتعلم كيف قضيت عاميّ السابقين، وكنت أحاول أن أخفي اهتمامًا يمزّقني بمعرفة كيف آلت الحياة بفاطمة.

كانت تسألني عن كل شيء: أمي، زوجها الجديد، أبي، عملي الجديد، أعمالي المقبلة، روتيني اليوميّ، نظامي الغذائي. كنت أجيب متحينًا ثغرة في أسئلتها لعلّي أعرف شيئًا عن فاطمة من تعليقاتها، لكن مع توالي أسئلتها بدأت في الاندماج تمامًا مع حماستها. بدأت في الحكي منسابًا بينما تقطع من فخذة الضأن في وسط الطاولة وتضع في طبقي، أعتذر بداية في تعفف مصطنع ثم أنهمك في ازدراد طعامها منشغلًا عنه بحقيقة أنني في المكان عينه الذي اجتهدت لعامين من عمري في مواراته ثنايا ذاكرتي.

- معاك سجاير؟

- معايا يا تونة.

- طب اسبقني على البلكونة.

في البلكونة أحكمت غلق السترة خوفًا من هواء ديسمبر البارد. كانت الكراسي البامبو مكسّرة ومرمية إلى الجوار فلم أجد بدًا من الاستناد إلى حافة حوض الزرع المليء بمشابك الغسيل القديمة والأكياس البلاستيكية مجهولة المحتوى. دخلت فاتن واتخذت مقعدًا على كرسي خشبي متهالك أصدر صريرًا عاليًا قبل أن يدرك أن وزنها لن يضطره للانهيار. ألقت على كتفيها شالًا صوفيًا ثقيلًا بينما تنظر لي. أخرجت علبة سجائري ومددتها باتجاهها قبل أن أخرج سيجارة أخرى وأدسها بين شفتي لأشعل بعدها السيجارتين. ما زالت فاتن تمسك السيجارة كمبتدئة، تضعها بين بنصرها ووسطاها وتثبّتها مرارًا بيدها الأخرى. كان الأمر مضحكًا في بداية معرفتي بها، الآن بدا مثيرًا للشفقة لسبب ما.

- إيه اللي جابك النهاردا يا وَلا؟

- إيه اللي جابني إيه يا تونة، ما أنتِ اللي قايلالي آجي!

- أيوا ما أنا عارفة إن أنا اللي قلتلك تيجي، إيه اللي جابك بقى؟

- أمشي يعني؟

- لا، مش القصد، بس يعني بقى لك سنتين مكلمتنيش، قوم فجأة كدا آجي على بالك وتكلمني؟

صمتت، كدت أخبرها أنني مغفل وأن يومي رديء وأن الهواتف الذكية لا تقينا ارتكاب الحماقة، وأنني أخشى المستقبل، وأن هلعًا ما انتابني جعلني راغبا في محادثة فتاة لم أجرب محادثتها من قبل، وأن العالم قاسٍ، وأن الزمالك جميلة ليلًا، وأنني كنت أفضل لو كانت قد صنعت صينية بطاطس بدلًا من فخذة الضأن لأنني أشعر بالامتلاء والرغبة في النوم الآن. كدت أخبرها كل ذلك لكنني وجدت أن الصمت أفضل ما ألوذ به في لحظة كتلك.

- أنت سمعت إنها سابته، صح؟

كنت أعلم ما تتحدث عنه. منذ ستة أشهر ظهر رامي فجأة على باب منزلي بزجاجة جلينفيديك. لم تكن لديّ خطط أفضل فأدخلته، فتحنا فيلمًا وشربنا الزجاجة كلها. بعد انقضاء الليلة اتجه رامي متثاقلًا تجاه الباب وعلى المدخل أخبرني أنه سعيد أنني بخير. أوقفته وقد طار أثر الكحول فجأة من ذهني سائلًا إياه عمّ يعني بعبارته تلك. بدا عليه الارتباك في البداية قبل أن يخبرني أنه ظن أنني سمعت بالخبر. كانت فاطمة قد صاحبت على ما يبدو. ضحكت في مرارة، يا لبؤسي، زجاجة ويسكي فاخرة أهدرت بلا عائد. شغلني الأمر أيامًا بعدها إلى حد الهوس قبل أن أستعيد توازني وأذكر نفسي بفعالية أنه لا بأس في ذلك.

- أنا وفاطمة خلاص يا تونة.

- وحياة أمك؟

ضقت بها وبالحديث. انصرفت إلى متابعة فلوكة ساعية بين ضفتي الزمالك وميدان عبد المنعم رياض، بينما استمرت فاتن في الحديث

حول أشياء أبديت معها تفاعلًا محدودًا. كان أكثر ما يزعجني في الأمر أنني كنت مهتمًا. كنت مهتمًا كأنما لم يمضِ على طلاقي عامان. كأن سدًا بنيته بيني وبينها على مدى عامين انهار مع أول دفعة من الماء. كان غضبي يتراكم حين صمتت فاتن فجأة وأصاخت السمع باتجاه مدخل الشقة، ثم أطفأت سيجارتها سريعًا.

- بقولك إيه، استنى كدا...

لم أكن قد سمعت جرس الباب فاعتبرته نوعًا من الخرف، لكن خاطرًا انتابني جعلني أنظر من البلكونة. في الشارع الضيق، كانت سيارة فاطمة البيجو الزرقاء بسقفها الزجاجي تتحرك في أناة بمحاذاة الرصيف. لسبب ما لم أفكر في ظهور فاطمة الليلة كاحتمال على الرغم من أنني في بيت أمها. طفقت أفكر، هل أخبرتها فاتن بمجيئي قبل أن أجيء أم هل ستفاجأ بي مثلما سأفاجأ بها؟ هل أوقعتْ بي فاتن لأقابل ابنتها؟ هل رائحة فمي جيدة بما يكفي؟ هل ستلاحظ فاطمة المزق الصغير في كم السترة والهالات السوداء تحت عيني؟ ربما يجب أن أرحل. نظرت مرة أخرى باتجاه البلكونة. كانت السيارة قد استقرت وأطفأت أنوارها، وبدا أن فاطمة لم تعد بداخلها. ابتعدت عن السور وهممت باتجاه باب البلكونة. سأرحل.

- طارق!

ذاب قلبي وجفت شفتاي.

خطت فاطمة نحوي خطوتين متردّدتين، ثم مدّت ذراعيها باتجاهي لأسقط فيهما متعبًا. كانت يدها تمتد لتسند رأسي بينما يمر ذراعها الآخر ليحكم ربط جسدينا. كنت أخف من ريشة في يدها بينما أحاول أن يبدو اندفاعي تجاهها بقوة اندفاعها تجاهي. وخزتني أنفي منذرة بانهمار مطر كثيف من عيني لكن عقلي أمر كلّي بالثبات. أبعدتني فاطمة لتتأمل

وجهي وأتأملها. ما زالت جميلة. بالطبع لو كانت إحداهن جميلة في أواخر عشرينياتها فلا يوجد سبب عفوي لأن تصبح قبيحة في أوائل ثلاثينياتها. لكن في ذهني قارنت شعيراتي البيض ووزني الزائد والصلع في مقابل بشرتها النضرة وشعرها الأسود الفاحم وقوامها المشدود وفكرت «يا بنت دين الكلب!»

احتضنتني ثانية بينما وقفت فاتن وراءها تدمع، قبل أن تنسحب في صمت.

- ما اتغيرتش خالص يا طارق.

رددت بابتسامة فاترة. ما زال باستطاعتها قراءة أفكاري على ما يبدو. هل أتت خصيصًا لرؤيتي؟ لم تكن فاتن لتخبرها، وإن أخبرَتها، ما الذي يدفعها للمجيء؟ كان ذهني خواءً؛ كنت أجهد نفسي في البحث عن أي شيء أقوله، أي تعليق ذكي، لا شيء. بياض مطلق. كنت أنظر في عينيها فأشعر بضياع مألوف، ضياع شهدته قبلًا معها. كانت عيناها مثبتتين على عيني فلم يكن هناك مجال للهرب. ساد الصمت لفترة، وفي الأثناء دخلت فاتن بصينية الشاي. قمت لأتناول الصينية منها، ثم جلست قبل أن أنهض ثانية فجأة.

- طب أنا حنزل بقى.

- ليه يا طارق؟ دي فاطمة لسه جاية.

- معلش يا تونة، أنا كنت نازل والله قبل ما تيجي، بس قلت أستناها أسلم عليها.

- ما تقعد يا جدع!

- معلش والله.

انحنيت على فاتن الجالسة على الكرسي، قبّلتها من وجنتيها

الذابلتين، وتحركت في اتجاه الباب. نهضت فاطمة لتوصّلني، فأصررت على أن تبقى بدعوى أنني أعرف طريقي جيدًا. مددت يدي مصافحًا إياها، وهرعت خارج الشقة.

في المصعد نزعت ربطة العنق عني في غل ووضعتها في جيبي. لم ينفعني بقاؤها بشيء، لكن للإنصاف لم يكن شيء لينفعني في مثل هذا الموقف.

خرجت من البناية إلى الشارع ورفعت رأسي متطلعًا باتجاه شرفة فاتن، غير أنني لم أستطِع تبين إن كانتا تراقبانني أم لا. ارتفع صوت بوق سيارة إلى يميني لينبّهني أني أسد الشارع. صرخت في السائق رغم علمي بخطأ موقفي، فسبّني وتحرك نحوي بالسيارة محاولًا إخافتي. اتجهت نحوه في غضب لأخرجه من السيارة بينما ارتفعت أصوات أبواق السيارات خلفنا. حاولت فتح باب السيارة وقد أمسكت السائق من ياقته في حين ظهر واحد أو اثنان من أبناء الحلال محاولين حجزي بينما يحاول ابن حلال الآخر إقناع الرجل بالذهاب إلى حال سبيله متجاهلًا أن قبضة يدي الممسكة بياقة الرجل هي السبب الأهم في منعه من ذلك.

قاطعني ظهور فاطمة عند مدخل البناية. لمحتها بطرف عيني فارتخت يدي عن ياقة الرجل الذي انتهز الفرصة وتحرك بسيارته. تراجعت مفسحًا الطريق لتمر السيارات وتلقيت لوم ومديح أبناء الحلال في صمت ثم عبرت الشارع باتجاه فاطمة.

- أنت جيت ليه؟

بدت عيناها مرهقتين في هذه اللحظة، لاحظت للمرة الأولى. هل لاحقتني فقط لتسألني لمَ أتيت؟ وماذا يهمها في الأمر؟ لم أشأ إخبارها الحقيقة لأنني كنت أعلم أنها قد تلقيها في وجه أمها لو تشاجرتا

بخصوص الأمر، عوضًا عن ذلك تشاغلت بالنظر في عين أحد المارة المحدّقين لعله يحول بصره بينما أجيب.

- جيت أشوف فاتن.

- مش كنت قلتلها ما تكلمينيش تاني؟

- ما خلاص بقى، مش حقعد بقية حياتي ما بكلمهاش.

صمتت لحظة ثم أخذت يدي ووضعتها تحت إبطها وقادتني للمشي باتجاه الماريوت. الشارع طويل وخالٍ من البشر، من آنٍ لآخر تمر سيارة. استوحشت الطريق واستوحشني. لم عدت؟ أردت أن أراها بلا شك. نظرت إلى وجهها. عليك اللعنة يا فاطمة، لن تعرفي أبدًا كم أحببتك.

- أنا عارفة إن هي اللي كلّمتك، بقى لها أسبوع بتقول إنك واحشها. أنا قلتلها بلاش، بس كنت عارفة إنها مش حتسمع الكلام.

ظننت أنني رأيت لمعة مألوفة في عينها. سحبْت نفسًا عميقا وغطّت وجهها بيديها قبل أن تزيحهما ليتكشف هادئًا مرة أخرى.

- ماما اتشخّصت بكانسر.

قالتها بالإنجليزية كأنما لتخفف من وقعها. زلزلتني عبارتها. استعاد ذهني وجه فاتن فجأة وهي تستقبلني على السلم وشعرت بأن وهنًا اجتاحني للتوّ. توقفت فجأة ناظرًا إلى فاطمة، ثم استندت إلى سيارة على جانب الطريق.

- عرفتوا إمتى؟

- من أسبوع كدا. كنا في الشارع وأغمى عليها، عملنا تحاليل وطلع عندها لوكيميا.

- أنهي مرحلة؟

- في الأول.

- وابتدت جلسات؟

- لسه حتبدأ الأسبوع الجاي.

لم أدرِ ماذا أقول.

- لو فيه حاجة أقدر أعملها قوليلي.

كانت عبارة مراسمية بحتة؛ بالطبع لم يكن هناك شيء لأفعله. كان من الممكن أن تمر بسلام رغم ذلك لو لا الصمت الذي أعقبها. أي شيء يفعله المرء في حضرة هذه الأشياء؟ العجز واحد، تذكرة هينة أن هناك أشياء بين السماء والأرض لا نملك لها ردًا وإن ظننا غير ذلك. كنت أعرف، كانت فاطمة تعرف أيضًا، لكنها كانت تعرف كذلك أنه لو كان هناك شيء لأفعله لما ترددت. التفتت مبتسمة. تناولت يدي وأنهضتني واستكملنا سيرنا.

- كانت بتقول إيه لما بتجيب سيرتي؟

- كانت بتقول جوز بنتي دا عيل واطي وندل بس واحشني.

- جوز بنتي؟

- آه، لسه بتقول عليك جوز بنتي لحد دلوقتِ، الموضوع محرج جدًا. هي بتحبك، ماكانتش حتكلمك النهاردة لو ماكانتش بتحبك.

- مش هي اللي كلمتني يا فاطمة، أنا اللي كلمتها.

رفعت حاجبها مندهشة. الأمر مفهوم، أعني لا بد أنها تفكر لم الآن بالذات. انقلبت دهشتها قلقًا ثم بادرتني:

- هو حد قالك حاجة؟ سمعت من حد حاجة؟

- لأ خالص، أنا كنت بكلم فاتن تانية وكلمتها بالغلط.

- فاتن تانية مين؟ فاتن ربيع؟

أثار ذكرها الاسم دهشتي. من أين تعرف فاتن ربيع؟ وكيف خمّنت

- إنتِ تعرفيها؟

- صاحبة واحدة صاحبتي.

- وعرفتِ منين إن دي فاتن اللي كنت بدوّر على نمرتها؟

- مافيش، صاحبتي دي شافتكم بتتعشوا مع بعض يوم وقالتلي.

- آه، كان معاد شغل.

- أنا قلتلها كدا ساعتها برضه. مش ستايلك.

أزعجتني ثقتها. ماذا تريدين يا فاطمة؟ كنت لأترك الأمر برمّته عند هذه النقطة لكن ثباتها استنفر رغبة قديمة بداخلي في العبث.

- مش ستايلي؟ وإنتِ عارفة ستايلي يعني؟

- أعتقد لو فيه حد عارفه كويس حيبقى أنا.

- إنتِ واخدة بالك إن عدت سنتين على آخر مرة اتكلمنا؟

- في حاجات ما بتتغيرش.

قالتها بابتسامة صغيرة على ركن فمها. ابتسامتها حينما تريد أن توحي بالثقة المنتصرة، بأنها تعرف كل شيء وأن كل شيء تحت سيطرتها. لمست رعبها في هذه اللحظة. حياتها تنهار، وهي تبحث عن أي دليل على أن العالم كما عرفته ما زال قائمًا في مكان ما. أكبرت محاولتها واجتاحني حنان عارم تجاهها.

- عندك حق، في حاجات ما بتتغيّرش.

ارتجف حاجبها ارتجافة خفيفة وإن بقيَ وجهها على استقامته. استكملنا مشيتنا صامتين. عبرت بجوارنا مجموعة من الدراجات النارية الصاخبة يركبها مراهقون آتون على الأغلب من إمبابة أو بولاق. بحركة

غريزية اعتدتها مددت ذراعي وأمسكت بكتفها ودفعتها إلى يميني بحيث أصبح أنا قبالتها من ناحية الشارع. نظرت ناحيتي بامتنان. أدركتُ أنني أكدت لتوّي قولها وغمرني الارتباك.

- حتعملي إيه مع فاتن؟

- حسيب شقتي آخر الشهر وأرجع أقعد معاها، وحتبتدي كيماوي.

- وعلي؟

- لا علي مش حيسيب دبي، مراته هناك، وابنه كمان في المدرسة.

- هو دخل المدرسة خلاص؟

- آه، في تانية ابتدائي أهو.

- يا لهوي...

- إيه؟

- الوقت بيجري بس.

ضَحكَت. لم أعلم ما الذي أضحكها تحديدًا، إلا أن الإنهاك كان قد أصابني فلم أهتم. كنا قد بلغنا بناية العمل ووقفنا أمامها. أشرت لها إلى المكتب المضيء.

- مكتبي.

- ما أنا عارفة.

- عارفة منين؟

- شُفتك كام مرة وانت بتركن وطالع، سألت البواب مرة وقال لي.

- وما جيتيش يعني؟

- يمكن آجي.

قالتها وابتعدت مبتسمة.

كنت لأنتظر حتى تغيب عن بصري في المعتاد، لكن شعوري بالإرهاق كان مضاعفًا. فكرت أن المكتب خالٍ الآن وأراحني الأمر. سآوي إلى المنزل بقية الأسبوع؛ لا رغبة لي في أن أشهد ما سيحدث خلال الأيام المقبلة. سيأتي الجميع إلى مكتبه بحثًا عن تفسير، عن حكاية. لا حكاية لتحكى، وليست بي طاقة لا للتعزية ولا لاحتمال الغضب.

دفعت باب المصعد عند طابق المكتب بتعب لأفاجأ بأني أدعس على زجاج مكسر. كانت واجهة المكتب الزجاجية مهشّمة على الأرض عند المدخل. أثار الأمر فضولي. وضعت عدة سيناريوهات لما حدث، لكن عابها جميعًا غياب المنطق. تجاوزت الزجاج المتناثر في حذر إلى صدر قاعة الانتظار وأصخت السمع. من مكتب رامي كانت «عودت عيني» تنساب ويصاحبها صوت كمان متردد يحاول مجاراتها. اتجهت إلى مصدر الصوت ودفعت الباب ببطء. كان رامي مغمضًا عينيه، منغمسًا بالكامل في الأغنية واللعب. قطعت طريقي في صمت واتخذت مقعدي قبالته. فتح عينه للحظة بينما هو في وسط اللعب فوجدني أمامه. اختل توازنه من على الكرسي وكاد يسقط. ضحكت، بينما اعتدل في غضب صارخًا:

- ما تخبّط يا أخي!

كدت أرد لكنه أخرسني بإشارة من يده ليصغي إلى أم كلثوم تردد: «لو كنت خدت على بعادك، كنت أقدر أصبر وأستنى» استمع لها تكررها عدة مرات ثم أغلق الأغنية كأنما كان يسمعها فقط من أجل هذا السطر. ترك الكمان من يده، ثم أشعل سيجارة.

- شُفت المدخل؟

- إيه اللي حصل؟

- وليد كان بيقبض وبعدين اكتشف إنه مخصوم منه واتخانق مع المحاسب ومعايا ومع حبة ناس. بُص...

التفت ليريني أثر لكمة على جانب وجهه، زُرقة خفيفة لم أتبينها من زاوية جلوسي. زفر الدخان بعدها ثم أخذ الكمان ووضعه في حقيبة تراكم على ظهرها الغبار وأزاحها بقدمه.

- تلاقيه عارف إنه الشهر دا آخر شهر ليه. بس برضه، مالهاش داعي يعني. بقى لنا سنة شغالين مع بعض، فيه حد يعمل كدا؟

كان يتحدث بأسى حقيقي لم أفهم مصدره على وجه التحديد. نظرت إلى المكتب الغارق في الظلمة والزجاج المتناثر على الأرض بينما نهض رامي من وراء مكتبه متجهًا إلى الثلاجة الصغيرة في ركن الغرفة.

- عايز بيرة؟

كان صدري ثقيلًا. انسابت الكلمات من فمي دونما تحكم مني:

- رامي، أنا حمشي من الشغل.

لم يبد عليه أنه سمعني. أتى بصفيحة البيرة وجلس على كرسيه الجلدي، فتحها في صخب ورشف الزبد من على سطح السائل الذهبي. أعدت عبارتي على مسامعه فقاطعني:

- سمعتك!

لم أعرف ما يتوجّب عليّ فعله. أعني لم أترك عملًا من قبل كان مديري فيه صديقي أيضًا، لم أعرف إن كان الأمر مزعجًا بالنسبة له أم لا. انتابني الصمت لوهلة قبل أن أقرر سؤاله مباشرةً:

- إنت متضايق؟

- عشان حتمشي؟ لأ، خالص، بالعكس. كدا كدا كنت حمشّيك كمان شهرين تلاتة، لما تبقى جاهز يعني تتعامل مع الموضوع.

- أنا قلت كدا برضه.

- أنا بس اتخضّيت لما أنت قمت من الاجتماع، فقلت قشطة أنا حخسر إيه يعني؟ أدفع مرتبك شهرين تلاتة كمان، بسيطة.

- أنا مش عيل يا رامي، أنا أعرف آخد بالي من نفسي.

- أنا عارف، عارف.

سكت قليلًا وجرع جرعة من صفيحة البيرة، عبث بغالقي أساور قميصه الفضيين ثم عاد:

- بس الناس بتكبر وقدرتهم إنهم يعملوا صحاب بتقل، ومافيش معنى للقفش، فاهم؟ في مخاطرة دايمة في إنك تشتغل مع واحد صاحبك إنك تخسره لأن عمرها ما بتخلص بشياكة. إنتَ حتشوفني اتعولقت شوية، أنا حشوفك هرجت جامد. بس فاكِسْ، أهم حاجة نفضل تمام.

طوال علاقتي برامي كانت لحظاتنا العاطفية قليلة، كنت أشعر برعايته ولا أراها. تركتني عباراته مشدوهًا غير عالم ما يتوجب عليّ فعله تحديدًا. كفاني رامي مشقة الرد؛ استرخى على كرسيه كأن الأمر لا يعنيه. أعاد تشغيل «عوّدت عيني» وأغمض عينيه. تأملته وفي الخلفية زجاج المكتب وكوبري مايو من ورائه، واسترخيت في مقعدي قبالته.

هنا وهناك

اعتدلت عائشة في جلستها على الفراش ورفعت رأسها لترقبه بينما يتحرك ليلملم ملابسه من أنحاء الغرفة على نور الغرفة الخافت. شهرهما الثالث وما زالت لم تعتد حلاوة ساعاتهما في الفراش بعد. أهو الحب؟ طردت الفكرة من خاطرها بسرعة لكنها عادت لتفكر؛ لا شيء كفيل بجعل الجنس مدهشًا غير الحب.

في الأشهر التي أعقبت طلاقها شرعت في رحلة من العلاقات الجنسية وجدتها -لاندهاشها الشخصي- غير مُرضية على الإطلاق. لم يكن الأمر محبطًا بالمعنى، بعض الأداءات كان جيدًا حقًا؛ في إحدى المرات احتفظ أحدهم بلياقته لخمس وأربعين دقيقة كاملة، وهو أمر لم تشهده مع زوجها السابق. إلا أن وضوح الغرض من تلك الليالي لم يترك مساحة كافية ليتجلّى سحر الفراش؛ لا تمّهيدات عظيمة، لا قبلات تُذكر، لا عض لحلمة الأذن، فقط اعتصار بارد لصدرها، وصفعات متتالية على مؤخرتها. لم تمانع لأن الأمر شتت انتباهها عن آلام حسبتها أسوأ، ولكنها لم تعد لمعاشرة أحد منهم. كانت علاقتها بعمر لتجري

على النحو ذاته غير أن أمرًا ما راقها في الطريقة التي حُمل بها جسده على فراشها في المرة الأولى. كان أنيقًا في حركته أناقة غير أدائية، تسعى أصابعه على جسدها ليكشف مكامنه، فإن أصاب عاود. مرة تلو المرة. يعلو صوتها بينما يتحرك لسانه أسفلها، يرتجف فخذاها نشوة وتلهو برأسها الأحلام.

وجدته على تِنْدر. ليلة قلقة ونوم صعب المنال. ارتدت ملابس الجري ونزلت لركضة حول مربعها السكني لعِل الإرهاق ينيمها. عادت بعد نصف ساعة لحمام ساخن. لا أمل. فتحت كتابًا وأغلقته. فتحت فيلمًا وأغلقته. جرّبت حتى اللعب على جهاز البلاي ستيشن الذي تركه زوجها وراءه. لا نوم. في تلك الساعات الوحيدة من ليل الثلاثاء قرّرت أن تلهو على تندر. فتحت التطبيق وقلّبت فيه. كانت قد استخدمته عدة مرات من قبل دون فائدة. ظلت تفضل الطرق المعتادة: دوائر المعارف، العمل، الحفلات. بدا لها أنه من اليأس حقًا أن نلجأ لخوارزميات لتعيننا على ألا نكون وحيدين. لكنها كانت يائسة وليل الشتاء طويل وبارد.

تقابلا في الليلة ذاتها على قهوة الثكنات. أقبل عليها في سترة رياضية منسوجة من مواد مصنّعة، وسروال قطني مريح للجري. لاحظت تناقض جسده الرياضي المنتفخ مع نظارته الدائرية ووجهه الطفولي وليّ النارجيلة في يده. أشار به حينها بإعجاب إلى الخزام في أنفها قائلًا: «نايس». لفتتها لهجته. بدا مستريحًا وهو يأمر القهوجي أن يعد لهما جلسة في الخلف. تركها للحظة ليسلم على أحد الجالسين. تأملت الكراسي البلاستيكية الصفراء التي يعج بها المكان وإضاءته المرتجلة فوق الأشجار المتناثرة على الرصيف والتي يقبع تحتها لاعبو الدومينو والورق. انتبهت لدور محتدم من الطاولة يجري إلى جوارها، وانتبه إليها أحد اللاعبين. دعاها بود – وإن كان بسخرية خفية – إلى أن تجلس لتلعب معهم وقدم لها الزهر، فأمسكته بنزق ورمت به على الطاولة.

«دو شيش»، ضحك في نشوة وكاد أن يلعب بناء على رميتها لولا أن أوقفه زميله في عنف، «إنت حتعرّص؟» عاد رفيقها عند هذه النقطة، ألقى التحية على الجالسين وأخذها وتحركا باتجاه جلستهما. سألها إن كان اللاعبان قد ضايقاها بينما تنتظره، هزت رأسها نافية وقد سرّها اهتمامه. سألته إن كان يحب لعب الطاولة، أخبرها أنه لم يلعب منذ زمن بعيد، ردت مشاغبة «خايف تتغلب؟» رفع حاجبه في تحدٍّ وعلا صوته بطلب طاولة. أتى له القهوجي بنارجيلة وطاولة، سألها عن طلبها فطلبت نارجيلة هي الأخرى وشرعا في اللعب.

في الدور الأول ترفّق بها، لكنها أبدت ذكاءً كبيرًا في تحريك قطعها على الطاولة، وهزمته بفارق ضئيل. في الثاني كان حظه أحسن؛ لم يبذل مجهود في سحقها، وضحك عندما رأى عينيها تشتعلان غضبًا. أصرت أن يلعبا ثانيةً، وهزمته مرة أخرى، مرتان لمرتين. قررا أن يلعبا دورًا فاصلًا. انتوى تركها لتفوز في البداية، لاحظت وأصرت أن يلعب بجدية، انصاع وعندما اقتربت هزيمتها أغلقت الطاولة في غيظ، ثم ضحكت. اكتشفا أنهما لم يتبادلا كلمة خارج اللعب حتى الآن. سألته إن كان يقطن بالجوار، أخبرها عن موقع منزله فتبين أنهما جاران تقريبًا. أبدت دهشتها أنها لم تره من قبل في الشارع، فأخبرها أنه انتقل منذ ستة أشهر فقط إلى المعادي بعدما تنقل بين عدة بيوت داخل القاهرة منذ أن التحق بالعمل في شركة اتصالات عالمية قادمًا من الإسكندرية قبل ثلاثة أعوام، قبل أن يترك الشركة ليعمل استشاريًا معلوماتيًا مستقلًا. «بيتي الرابع» قال مبتسمًا. لفتتها أسنانه، منضودة بعناية باستثناء ضب صغير للغاية كافٍ ليضفي عليها لمحة من الفوضى. أخبرته أنها تعيش في المعادي منذ تزوجت. بهت لوهلة قبل أن تستدرك، «بس اتطلقنا من كام شهر.» كان زوجها قد ترك لها الشقة ضمن تسوية الطلاق، ثم ترك لها المدينة كلها وانتقل إلى دبي.

كانت القهوة قد خلت عليهما وبدأ العمال في التحلق حولهما راغبين في رحيلهما حتى يتسنّى لهم إغلاق المحل. دعته لأن يكملا السهرة في مكان آخر، نظر في ساعته وبدا عليه التفكير. ساءها الأمر فاستدركت أنه ليس مضطرًا بأي حال، فابتسم كاشفًا عن ضبه الساحر، «لا أنا بس كنت بفكر لو دا وقت مناسب أبعت أعتذر عن اجتماع بكرة». أصرت أن تدفع لنفسها، تركها بعد ممانعة طفيفة. تمشّيا في شارع 87؛ الجمعية الاستهلاكية المغلقة، سور مدرسة الليسيه، الصيدلية، المسجد. ران عليهما صمت مريح لا يقطعه سوى أسئلتها العشوائية: «شغلك فين؟»، «بتروح بأوبر ولا بالعربية؟»، «سمعت إنهم حيقفلوا شارع تسعة قدام العربيات يوم الجمعة؟» ينظر لها ويبتسم مرارًا. أعجبها. فكرت أن حظها جيد أن تجد رجلًا أعزب على هذا القدر من اللطف بهذه الطريقة العشوائية. ولكن من قال إنه أعزب؟ «إنتَ مصاحب؟» سألته بغتة. لم يبتسم هذه المرة وإن رد باقتضاب: «لأ.» عادت ملحة: «ومش متجوز؟» رفع أمامها يديه خاليين من دبلة زواج. تذكرت مشهدًا في فيلم أمريكي حين تضع أم البطلة نيابة عن ابنتها إعلانًا في صفحة الإعلانات الشخصية بجريدة ما، وبعد اعتراض من الابنة تنصاع لرغبة أمها في مقابلة الراغبين في التعرف عليها، أحدهم كان ساحرًا حقًا، الشخص الأول الذي لا يثير مللها ولا انزعاجها في سلسلة طويلة من الأشخاص، ثم في لحظة حاسمة من جلستهما يخرج حافظته لسبب ما فيسقط منها خاتم زواج. يا للأسف. أشفقت على الفتاة حينها؛ أتكون هي الفتاة ذاتها الآن؟ خطر لها أن تطلب منه أن يفتح حافظته، لكنها عدلت عن الأمر سريعًا.

بلغا بنايتها. سألها عن شقتها، طلبت منه أن يخمّن. نظر في الشرفات ثم أشار إلى إحداها وقال: «دي». سألته عن أسبابه، أخبرها لأنها أجملهن. ضحكت قائلة «إنتَ معرّص». بدت على وجهه الصدمة وصَمَت. أثار الأمر قلقها وسارعت تعتذر، لكنه أشاح بوجهه بينما اقتربت منه مُلّحة

في إبداء أسفها. التفتَ مبتسمًا: «ما يبقاش قلبك خفيف». لكمته برفق في ذراعه المنتفخة فتظاهر بالألم. همت ناحية باب البناية، أوقفها. «أنا لازم أمشي، مش حينفع أعتذر عن الاجتماع.» بدا عليها الضيق؛ لم تكن ترغب في رحيله، لكنها تماسكت. مدت يدها مسلمة وقالت: «ذاكر كويس»، ثم استدارت ودلفت إلى مدخل البناية دون أن تلتفت.

كانت شقتها أبرد من الشارع، لأسباب تتعلق بالمبنى ربما، وربما لأن جسدها قد سكن فجأة بعد التمشية. تندم أحيانًا أنها لم تأت بكلب كما نصحها أصدقاؤها بعد الطلاق. كانت تستقوي بنفسها على نفسها. لكن في لحظات مثل هذه، حينما تعود إلى شقتها لتجدها خالية من الأثاث ومن الحب على حد سواء، تفكر؛ ما كان أحوجها إلى نَفَس آخر في البيت. لمَ لمْ يصعد معها؟ ربما يجب عليها أن تتوقّف عن مقابلة غرباء من أجل الهرب من الوحدة. ليتها أنجبت حين اقترح. لم تكن تحبه أصلًا، أو أحبته وتوقّفت عن حبه. الوجود معقّد ولن يزورها النوم قريبًا على ما يبدو. أخرجها صوت رنين الباب من خواطرها. من عساه يزورها في هذه اللحظة؟ نظرت في العين السحرية. كان هو. لم تعرف لم عاد. فتحت. أخبرها أنه أيقظ شريكه ليخبره أنه لن يأتي اجتماع غد، وأنه لن ينام على الأغلب ويود لو حظيَ برفقة للّيلة. ابتسمت بسرور لا تذكر أنها اختبرت مثيله منذ وقت طويل وأدخلته.

ثلاثة أشهر قضيا معظمها في الفراش، دائمًا فراشها الواطئ. لم يخرجا نهارًا، لم يتحدّثا كثيرًا، ربما عمدا إلى القهوة ليلًا للعب الطاولة. غلبته حينًا وغلبها حينًا وإن ظلّت على تشككها الدائم أنه يترك لها الدور حين يرى بؤس شعورها بالهزيمة. صنع لها طعامًا، أهدته عطرًا لتعرف بقدومه وهو على السلم. شيء واحد أرقها: منزله. كانت تمر أحيانًا من تحت بيته في طريقها للخروج من المعادي أو في طريقها للعودة إليها فيخطر لها أن تصعد بلا تحذير لتطلع إلى ذلك المكان الذي لم تُدعَ إليه

أبدًا. كانت حين تسأله لم لا يلتقيان في بيته أبدًا يتعلّل؛ المنزل متسخ، أمه تزوره، الشقة مرشوشة بالكيماويات بسبب النمل. هناك دائمًا أمر ما بخصوص بيته. قاومت الأسئلة. كانت قد خرجت من زواجها دون نيّة حقيقية في الارتباط مرة ثانية، البحث عن المؤانسة كان دافعها الوحيد تجاه العالم دون رغبة في بذل الجهد. كانت تعلم أنها حالما اجتهدت في إنجاح شيء فقد امتلكته، وإن امتلكت شيئًا فقد امتلكها في نهاية الأمر.

كان يبادلها الأمر ذاته؛ أخبرها مرة باقتضاب أنه أحب بصدق مرة واحدة في حياته، فتاة أمريكية، تركته لأنها كانت غير قادرة على الاستمرار في القاهرة في حين لم يكن باستطاعته أن يتركها. خمّنت أنها أحد انكسارات القلب التي لا يعود بعدها المرء كما كان. لم يطالبها بشيء، كان كالنسيم، وحرصت أن تكون الشيء ذاته له. لا أحد يملك النسيم ولا يمتلك النسيم أحدًا. أعطته نسخة من مفتاح بيتها وتقابلا في البيت دون مواعيد. حتى ضبطت نفسها تنتظر قدومه ذات يوم فأخذت المفتاح ثانية ولم يتحدّث أي منهما عن الأمر مرة أخرى.

لكن أمرًا ما كان يتغير رغمًا عنهما. مطلع الأسبوع الماضي وجدته ينتظر أمام شقتها حاملًا باقة ورد. لم يُخيّل لها قبل هذه اللحظة أن الورد كان يمكن أن يكون من ضمن ما قد تشمله علاقتهما. سرها الورد ولكنها لم تبد سرورها. كان من المفترض أن يبقى ليأكلا، لكنه تعلل بالعمل ورحل. في اليوم التالي شعرت بسخفها. «ما يجيب ورد، إيه المشكلة لما يجيب ورد؟» طبخت هي على سبيل التغيير، وانتظرته. لم يأتِ. ظهر بعد يومين في أطول وقت غاب فيه عنها منذ التقيا. استقبلته ببرود حتى شرع في تقبيلها. لم ترد قبلاته حتى أمسك بوجهها ونظر في عينيها، وقعت نظرته في قلبها مدوِّية وبادلته القبل. في الأيام التالية كانت ترقبه حين يدخل وتراقب نفسها؛ خفته على الأرض ساعيًا إليها وشوقها إليه.

تنكر قلبها وتنكره، ينكر قلبه وينكرها ويجمعهما الفراش. حادًا، خفاقًا، ومخضّبًا بالعرق.

عادت إلى اللحظة. أنهى ارتداء ملابسه وجلس إلى حافة الفراش ليحكم ربط حذائه. جذبته إليها. أرادت أن تستبقيه لليلة ولم تستطع حمل نفسها على القول، عوضًا عن ذلك قبّلته واحتضنت رأسه بشدة. لا ريب أنه اندهش، لكنه استسلم لقبضتها المتمسكة. رأت نفسها ورأته. هي عارية وهو بكامل ثيابه. شعرها المموج المتناثر في مقابل شعره القصير المصفف، ترهل بطنها في مقابل مؤخرته المشدودة، عيناها الخضراوان في مقابل عينيه البنيتين، سمرتها في مقابل بياض جلده، ذراعها النحيل وذراعه المنتفخ. شعرت بالدموع تتكثف في عينيها وضايقها الأمر. تركت رأسه فجأة واستدارت وانطلقت إلى الحمام. صعد صوته من ورائها يسألها إن كان هناك خطب ما. لم ترد آملةً أن يرحل لو أطالت البقاء في الحمام.

خرجت بعد عشر دقائق، اثنتي عشرة ربما. كان بانتظارها. سألها عن الأمر فردت بغمغمة غير مفهومة. سألها إن كانت بخير، إن كانت ترغب أن يبقى معها الليلة، فأخبرته بحدة أنها بخير. فاجأته نبرتها وأحست بالذنب. نهضت واضعة رداءً حريريًا على جسدها لتصحبه للباب تخفيفًا من وقع كلماتها. على الباب أخبرها أنه قد لا يستطيع أن يأتي غدًا لأنه مدعوٌّ لسهرة مع جماعة مع أصدقائه. صمت قليلًا ثم عاد:

- تعالي معايا.

كانت المرة الأولى التي يدعوها فيها لمناسبة مثل هذه. كانت دعوة حذرة لزيارة عالمه الآخر، هشة حتى إن صمتًا أطول من اللازم قد يهشّمها.

- ماشي.

ردت وهي غير متأكدة تمامًا إن كانت مستعدة للذهاب، لكن راحةً اعترت وجهه مسحت على قلبها سكينة. كان يريدها أن تأتي؛ أجهد نفسه على ما يبدو في التفكير في كيفية دعوتها، وربما خشيَ أن ترفض. كان الأمر سيحط من شأنه كثيرًا لو رفضت، وربما أثار حساسيته بشدة. بدا وكأنه سيقول شيئًا آخر، لكنه التقط سترته، وضع إصبعيه الوسطى والسبابة قبالة جبهته ثم حرّكهما أن وداعًا ورحل.

شغلها الأمر بشدة على مدار الساعات التالية. ودت لو سألته عن العديد من الأشياء، ثم فكرت أنه لا بد وقد شعر بإحباطها ليلة أمس فأراد تعويضها بدعوة غير جادة. غيرَ أنه فاجأها بهاتف صباحيٍ غير معتاد يذكرها بموعدهما. حاولت التملص من الأمر لكنه أصر قائلًا:

- إنتِ قلتِ ماشي.

من تحاول أن تخدع؟ كانت ترغب في الذهاب بقدر ما كان يرغب فيه. عاودتها الأسئلة في تلك الساعات: ماذا ترتدي؟ كيف سيجدها أصدقاؤه؟ فيمَ ستفكر الإناث منهم بزينتها؟ هل تضع طلاء أظافر أزرق أم أحمر؟ غادرت عملها مبكرًا وذهبت لمصفّف الشعر. لم تجد حفّافتها وكادت تنصرف لولا أن صادفت صورتها في المرآة؛ حاجبيها بحاجة إلى النتف. انتقت أفضل العاملات مظهرًا وذهبت معها. حينما انتهت خطر لها أن تحادث عمر لتخبره أنها لن تأتي وتغلق هاتفها لما تبقى من اليوم. خرجت من المحل لتجد سيارتها وقد خولفت، انتزعت ورقة المخالفة في غيظ ورحلت.

في المساء استقرت على ملابسها: معطف أسود وسروال نبيذي اللون وقميص حريري أبيض وحذاء جلدي طويل الرقبة. حادثها عمر ليخبرها أنه وصل، تركته في الانتظار خمس دقائق أخرى ثم نزلت. سيارته خالية من أي شيء يدل على صاحبها، أما هو فألفته قابعًا في كرسي القيادة

يقلب في هاتفه مرتديًا الزي ذاته الذي يرتديه حينما يزورها، دائمًا وكأنه عائد من الجيم أو في طريقه إليه. أزعجها الأمر خاصة أنها تأنقت للمناسبة، لكنها لم تعلق. سألته عن وجهتهما فرد:

- وسط البلد.

كان شارع 283 مزدحمًا، فاستدار وخرج من شارع النصر، ثم عبر الأوتوستراد إلى الدائري. أعجبتها معرفته بالشوارع الخلفية الصغيرة رغم كونه حديث العهد نسبيًا بالحيّ. ران الصمت على السيارة ففتحت الكاسيت وشغّلت ملفًا عشوائيًا. كان درسًا مسموعًا لتعليم الحديث باللغة الإنجليزية بلكنة أمريكية. امتدت يد عمر مغلقةً الكاسيت بسرعة. بدا على وجهه الضيق قبل أن ينزع إصبع الذاكرة عن الكاسيت ثم يأمرها أن تفتح التابلوه وتنتقي من الأسطوانات بداخله. لم ترغب في بذل جهد في انتقاء الموسيقى فأخرجت هاتفها وقلبت في شاشته حتى تنشغل عن الطريق.

وصلا ودخلا عمارة أصدقائه. كان ممر السلم مظلمًا. امتدت يده باحثة عن زر النور قبل أن يتجه لشقة في نهاية الممر يتصاعد منها صوت الضحك. ضغط زر الجرس لكن أحدًا بالداخل لم يسمع. طرق الباب بحرص قبل أن يخرج هاتفه ليحادث أحدهم بالداخل، لينفرج الباب عن فتحة قصيرة كافية لمرورهما. في المدخل قبعت لوحة رديئة بدا عليها القدم لقارب صيد تتلاعب به الريح، شدهت أمامها للحظة قبل أن تجتذبها الأيدي للسلام. استقرت إلى جواره على أطراف الجلسة وعدت أمامها: شخصًا، شخصين، خمسة أشخاص، أكثر. عاودها توترها من الناس. ما الذي جاء بها وسط هذا الجمع؟ استجمعت نفسها وأبقت على ابتسامتها المحايدة. ستهدأ الآن وستتذكر أسماءهم واحدًا تلو الآخر بتقدم الحديث. اقتربت منها الشقراء التي فتحت لهما الباب لتسألها ماذا تشرب، فأجاب عنها عمر:

بيرة.

كان مصيبًا لكنها انزعجت لتلك الحقيقة بأكثر مما أراحتها. رفعت صوتها متجاهلة إياه:

فيه نبيت؟

هزت الفتاة رأسها فطلبت منها عائشة أن تأتي لها بكأس. رمقها عمر بنظرة جانبية مستغربة ثم تجاوز عن الأمر.

كان حبهم له باديًا، أحدهم يسأله عن أحوال عمله ويشير لها بطرف خفي خافضًا صوته ظنًا منه أنها لن تلاحظ. بدا لها أن الغرفة مضاءة بأكثر مما كانت عند المدخل. فكرت لو طلبت منهم تخفيف حدة النور، لكنها لم تجرؤ. أفاقت على يد الفتاة الشقراء ممتدة تجاهها بكأس النبيذ. التقطتها وارتشفت منه رشفة. اللعنة على صلابة رأسها. لا تحب النبيذ من الأصل، لو لم يسبقها الملعون إلى الإجابة! وضعت الكأس إلى جوارها فصعد صوت الفتاة الشقراء من يمينها:

- خدي بالك أحسن الترابيزة دي مهزوزة.

هل كانت تراقبها منذ ناولتها الكأس؟ التقطت الكأس مبتسمة في مجاملة وحملتها في يدها.

- حلقك جميل!

قالتها الفتاة وهي تقترب منها ومدت يدها في حركة لا إرادية لتتحسّسه. حلق أمها المرصّع بالفيروز، كانت ترتديه أمها درءًا للحسد، واليوم ارتدته هي استجلابًا لحضور أمها الواثق ولسانها اللاذع.

- شكرًا.

ابتسمت ورفعت كأسها للفتاة قبل أن تدرك أنها لا تتذكر اسمها. صمتت للحظة محاولة تذّكر الاسم لكن الفتاة كانت أسبق. مدت لها يدها في ود:

- أنا راوية.

ردت عائشة بارتباك:

- آه، أنا عارفة.

ردت راوية ضاحكة:

- لا أنتِ مش عارفة، بس عادي.

جارتها عائشة في ضحكها، وجرعت جرعة مرتبكة من كأسها. جلست الفتاة إلى جانبها وأشارت إلى الجالسين في ود:

- دا منزلاوي، واللي جنبه راندا، مراته. يعرف عمر من الكلية في إسكندرية وجِه القاهرة قبله، وراندا كانت صاحبتي في الكلية. ودا باسم، صاحب منزلاوي من الشغل، وعالية، مهندسة ديكور، صاحبة راندا.

ثم خفضت صوتها أكثر:

- وصاحبتي برضه، وبنحاول نظبّطها مع باسم.

نظرت عائشة في وجهها وقد بدا عليه سُكر طفيف. ودت لو أخبرتها أنها لن تنتفع بالأمر كثيرًا لأن الأسماء لا تعلق بذهنها، لكنها أعادت النظر في وجهها واكتفت بابتسامة محايدة.

صعد صوت باسم سائلًا:

- حنشوف إيه النهاردا؟

ليندلع نقاش صاخب تبادل فيه الجمع اتهامات متنوعة الصياغة برداءة الذوق. تقدم منزلاوي باقتراح فارتفع صوت عمر ساخرًا:

- بلاش إنتَ يا منزلاوي!

ضحك الكل بينما تدخّلت راوية:

- إيه يا عمر، هو عشان مش تشيك فليك مش عايز تشوفه؟

لم تكن عائشة تعرف بشأن أفلام المراهقات. خطر لها أنهما لم يشاهدا فيلمًا واحدًا في شهورهما الستة. هل يمكن أن تدّعي حب شخص لا تعرف أي الأفلام يفضل لساعات الليل المتأخرة وأي الأفلام يفضل لنهايات الأسبوع؟ كانوا يسخرون من عمر بقسوة عادّين الأفلام التي اقترحها من قبل، وكان يضحك وهو يدافع عن اختياراته:

- إنتو قلتوا إنكم زهقانين، سألتكم عايزين تضحكوا قلتوا آه!

عاد منزلاوي:

- عايزين نضحك مش نتفرج على ليندزي لوهان بتخزوق صاحباتها في المدرسة!

نهض عمر باتجاه الحمام ضاحكًا:

- إنتو شلة معرّصين.

تأملت مشيته. تدرك أنه يخفي هشاشته ويعجبها تماسكه. التفت لها منزلاوي ضاحكًا:

- معلش، أصله حساس شوية لما بنجيب سيرة الأفلام اللي بيحبها.

عاد للضحك الصاخب فضحكت لضحكه مستغربة من مدى إعجابه بدعابته قبل أن يرجع عمر ويعاجلهم:

- أيوا يا منزلاوي أنا قلتلكم قبل كدا نشوف «مين جيرلز»، بس «مين جيرلز» دا، رغم أنه فيلم زي الخرا، أحسن من «نايت أوف ذا هانتر» اللي أنت فرجتنا عليه.

عاد الضحك أعنف بينما دافع منزلاوي عن اختياره:

- بس يا جهلة، دا أحسن فيلم حتشوفوه في حياتكم!

احتل عمر مقعده بجوارها وقد رد اعتباره. نظر لها فنظرت في عينيه. مد يده خفية وأمسك يدها فأمسكت يده وتمنّت ألا يفلتها.

كانوا قد طلبوا طعامًا على ما يبدو قبل أن تأتي، فهمست لعمر سائلة لم لم يسألوهما؟ لم تأكل منذ الصباح والساعة الآن تقارب الحادية عشرة. طمأنها أنهم كانوا قد أرسلوا إليه وهما في الطريق وأخبرهم أن يضيفوا على الطلب ما يكفي لهما، فعادت ملحّة:

- وماسألتنيش ليه عايزة آكل إيه؟

نظر لها مبتسمًا ولم يرد وإن بدا عليه قليل من الضيق. لم تكن لديها فكرة متماسكة عما أرادت أن تأكل، وفي الواقع كانت شطيرة البرجر التي طلبها لها مثالية، تمامًا كما تحبها؛ متوسطة النضج وإلى جوارها أصابع بطاطس حلوة وكولا، لكن أرقها ميله لصنع قرارات نيابة عنها. إلا أنها سرعان ما فكرت أن الأمر يحتمل تفسيرًا آخر، فهذا الانتباه لرغباتها يعكس اهتمامًا. قررت أن تكافئه على شطيرة البرجر لاحقًا وسرعان ما انهمكت في إنهاء وجبتها باستمتاع.

كانت أول من أنهى شطيرته فجمعت الفوارغ وأوراق التغليف في كيس الطلبات ممن أنهى وجبته وسألت عن اتجاه المطبخ، ثم عنّ لها أن تذهب إلى الحمام للتأكد من زينتها. كان الباب إلى يسار المطبخ، كادت تدلف إليه لولا أن لحقتها إحدى الجالسات -زوجة منزلاوي التي تحاول عبثًا تذكر اسمها- لتخبرها أن السباكة ليست على ما يرام في حمام الضيوف وتقودها إلى حمام آخر أوسع في عمق البيت. أوقفتها عائشة للحظة كي تجلب حقيبتها ثم تبعتها إلى الحمام.

كانت تشعر بحكة في عينها بسبب العدسات اللاصقة التي ارتدتها كرهًا اليوم بدلًا من نظارتها. أزالتها من عينها فدمعت، ثم طفقت تدعك عينها بهوس. أوقفت نفسها بصعوبة وقد انهالت الدموع على وجهها، ففتحت الصنبور لتغسله. مع التهاب عينها لم تشعر عائشة بخزامها ينزلق حثيثًا من الفتحة المخصصة له في أنفها؛ لم تلحظ الأمر إلا حينما أغلقت

الصنبور ونظرت في المرآة لتتأمل آثار الموقعة. لا شيء لتفعله، ستبتلع خسارتها وستمضي لتعيد وضع زينتها التي أفسدتها المياة وعدساتها اللاصقة اللعينة. جفّفت وجهها بمجموعة من أوراق التواليت، وضعت العدسات أولًا ثم تزيّنت واتجهت للباب للخروج.

- إنتِ تمام؟ أنا قلقت، بقى لك كتير.

استقبلتها راندا - الآن تتذكر اسمها - على الباب وقد بدا عليها الاهتمام. هل كانت تنتظرها منذ دخلت؟ كان بإمكانها أن تعود إلى الجلسة وحدها. ردت بغيظ مكتوم:

- معلش، عيني كانت واجعاني من اللينسز شوية.

- لا مش مشكلة خالص، المهم إنك بخير.

تقدمتها راندا للعودة إلى غرفة المعيشة قبل أن تتوقف:

- بقولك إيه، دي أول مرة تجيلنا، تحبي تشوفي البيت؟

كانت عائشة ترغب في العودة أكثر من أي شيء آخر؛ عينها ما زالت تؤلمها بعض الشيء، وأمر خزامها الضائع يزعجها، لكنها حسبت أن من سوء الخلق ألا تبدي اهتمامًا بمحاولة راندا الودود، فتبعتها إلى غرفة النوم بالداخل.

- الشقة أصلًا شقة جدّ أحمد، إيجار قديم، لما جينا نتجوز ماكانش فيه فلوس نأجّر أو نشتري والشقة كانت فاضية فجينا قعدنا فيها. دي الأوضة الوحيدة اللي غيرنا فيها جامد.

كانت تتحدث بينما تتأمل عائشة الغرفة. اتجهت إلى صورة زفاف تبدو على قدر من القدم لراندا ومنزلاوي، واقتربت منها لتمسكها وتنظر فيها. اتجهت إلى راندا:

- شكلك كان جميل جدًا في الفرح.

ردت راندا:

- بجد؟ متشكرة قوي! أنا كنت شايلة صور الفرح في ألبوم بقى لي فترة، بس قريّب كدا طلعت كام صورة يتبروزوا.

تناولت راندا الصورة من يدها ونظرت فيها:

- هو كمان كان شكله مزّ قوي في الصورة.

وضعت الإطار في موقعه على التسريحة والتفتت لعائشة:

- عمر قال لي إنك كنتِ متجوزة.

اندهشت عائشة لذكر الأمر. اعتبرت تعليق راندا وقحًا لكنها لم تسارع إلى الرد. سادت لحظة من الصمت قبل أن تقطعها ضحكة متوترة من راندا:

- أنا آسفة، مش قصدي خالص أتطفل.

ابتسمت عائشة بتحفّظ وهزت رأسها. استدركت راندا:

- أنا قصدي إنك محظوظة، إن يبقى عندك فرصة تاخدي حياتك في سكة تانية خالص من الأول، من غير ما حاجة تشدك. مش حاجة مريحة؟

ثم تابعت:

- مش قصدي إن الاستقرار وحش، بس فاهمة؟

أشفقت عليها عائشة؛ تلمّست في نبرة صوتها شعور من أدلى بما لا يجب في لحظة هشاشة ويحاول أن يتلمس سبيلًا لاسترجاع الزمن إلى لحظة ما قبل أن يقول ما قال.

- آه، فاهماكِ كويس.

فكرت أن تربت على كتفها لكن راندا عاجلتها:

- تعالي نطلع نشوف بيعملوا إيه.

ثم خرجت وتبعتها عائشة إلى الخارج.

كانوا مجتمعين في الصالة حول هاتف عمر. نادى منزلاوي على راندا مناولها الهاتف:

- شُفتِ البوست دا؟

ألقت راندا نظرة من بعيد على الشاشة وانطلقت منها ضحكة مدوِّية:

- وطبعًا دا مالوش علاقة خالص بالبوست بتاع رفيق الصبح.

التقطت عائشة الهاتف من يد راوية لتنظر فيه إلى صورة فتاة بجسد مثالي ترتدي البكيني مضطجعة على أحد كراسي البحر في مكان بدا لها أشبه بشواطئ المخيّمات على ساحل البحر الأحمر. قالت راوية بينما تنفث دخان سيجارتها:

- إنتو فاضيين على فكرة، أنا مش فاهمة هي عملتلكم إيه.

أخذ عمر الموبايل من يد عائشة الممدودة:

- الحمد لله ماعملتليش أنا شخصيًا حاجة، بس هي مجنونة طبعًا.

تدخّلت عائشة في الحوار متخذة موقعها إلى جوار عمر:

- هي مين دي يا جماعة؟

انحنت راوية لتطفئ سيجارتها وتوجهت إلى الجمع:

- إيه رأيكم نحكي لعيشة؟ أهي ولا تعرف الموضوع ولا البت ولا الواد، نحكيلها وتحكم.

ثم اعتدلت وأشعلت سيجارة أخرى وطفقت تحكي:

- فيه اتنين صحابنا كانوا مع بعض بقى لهم سنتين. ماكانوش قريّبين أوي مننا لكن كنا بنستلطفهم جدًا. المهم فجأة اختفوا تمامًا، هم الاتنين قفلوا فيسبوك، مابقوش بيظهروا في حتة، ماحدش فيهم بيرد على تليفونه، تلات شهور مثلًا ماحدش بيشوفهم خالص. وبعدين ابتدينا

نسمع حاجات من نوع دول سابوا بعض، أصل حصل حوار، أصل مش عارف إيه، وهي ابتدت تـ بوست تاني على إنستاجرام، وفتحت فيسبوك، وبتحط بقى صور غريبة، دايمًا جنبها رجالة تانيين معضلين وجو كدا.

هزت عائشة رأسها مستمعة ثم سألت:

- وبعدين؟

استكملت راوية:

- لحد ما منز قابل رفّيق من فترة وسأله عن الموضوع، فحكى له إنه نام مع واحدة تانية وهو مسافر، وإنه اعترف لنور، وكانت خناقة كبيرة فشخ، بس بعد كدا الدنيا هديت ودخلوا ناموا عادي. تمام؟ صحِي هو بقى الصبح لقى كل الهاردات بتاعة أرشيف شغله في جردل ميه، والعدسات بتاعته مكسرة، واللاب توب بتاعه في البانيو. ومن ساعتها ما اتقابلوش.

تدخل منزلاوي في هذه اللحظة:

- هو أنا قلتلكم ساعتها إنه قال لي إنهم كانوا متخانقين أصلًا قبل ما يسافر وبيفكروا يسيبوا بعض؟ وإنه كان ندمان جدًا على اللي حصل ولما رجع واعترفلها قال لها إنه بيحبها وإنه غلط وإنه عايز يفضل معاها، وعيطوا فشخ مع بعض، وناموا مع بعض كمان؟ بعدين صحي لقى حاجته بِخ.

قاطعه أحد الجالسين:

- أيوا يا منز، قلتلنا ساعتها وكل مرة بتحكي القصة بتسألنا. والمصحف حكيت!

- هي مجنونة يا جماعة، من ساعة ما شوفناها وأنا بقول إنها مجنونة.

ألقى عمر بالعبارة غير عابئ بينما يقلب في شاشة هاتفه، لكن الأمر استوقف عائشة:

- مجنونة ليه؟

رفعت صوتها قليلًا للمرة الأولى. في أحوال أخرى كان ليصرف النقاش مازحًا، لكن بدا أن شيئًا ما في نبرتها أزعجه.

- ليه؟ دي فشخت الواد!

ردت عائشة ببرود:

- ما هو خانها.

عند هذه النقطة تدخلت راوية بانتصار:

- شفتوا؟ أهو أنا مش لوحدي! شكرًا يا عيشة.

علا صوت عمر بالضحك الساخر:

- ثانية واحدة بس يا جماعة، يعني أنتوا شايفين إنه عادي إنها فشخت شغله؟ دا تصرف طبيعي يعني؟

ردت عائشة:

- إنتَ ليه بتبتدي الحكاية من النقطة دي؟ دول اتنين كانوا في علاقة، واحد منهم راح بمنتهى الدناوة نط على واحدة تانية، وعايز الموضوع يعدي بإنه يعيّط ويناموا مع بعض وخلاص؟

ارتفع صوت عمر بجدية هذه المرة:

- كان ممكن تسيبه!

قالت عائشة وقد بدا لها أن الأمر سيطول قليلًا:

- مش إنتَ ولّا هو اللي حتختارولها ترد إزاي! هو مش كان عايز ينط عالبت؟ برافو، يشرب بقى.

تدخل منزلاوي فجأة:

- إيه التخلف دا؟ ما أنا ممكن أدوس على رجل حد فيغزّني سكينة في بطني! أنا غلطان أكيد، بس هل دي زي دي؟

اشتعل غضب عائشة لإهانتها المباشرة. نظرت باتجاه عمر لكن لم يبد عليه أنه انتبه للأمر.

- وهو إنك تخون مراتك زي إن حد يدوس على رجلك؟

تراجع منزلاوي ناظرًا لزوجته:

- لا مش قصدي، مش دا اللي بقوله.

تدخل عمر في الحوار:

- يا ستي هو ما أذاهاش في شغلها، هي فشخت شغله!

ردت عائشة في غضب حقيقي:

- هو عمل أسوأ من كدا بكتير!

- لا مش أسوأ طبعًا، كانت تخونه هي كمان أرحم.

عند هذه النقطة من الحوار بدا الأمر عبثيًا لعائشة. تدخلت راوية ملقية مزحة واستسلم الجميع لانتهاء الحوار عند هذه النقطة، لكن إحباطًا كبيرًا خيّم على شعور عائشة بالأمر كله. بقيت للحظات تفكر كيف ستبدو إن قررت الرحيل الآن، لكنها في النهاية قررت أنها منزعجة بأكثر مما تحتمل البقاء. نهضت وسط استغراب الحضور وأستأذنت بالمرور على سهرة أخرى قريبة لأصدقاء لها. لم يتحرك عمر ليمنعها، لم ينهض ليصطحبها، لم يصافحها. نهضت راوية لمصاحبتها باتجاه الباب وحاولت المضي معها إلى باب الأسانسير، لكن عائشة أصرت أن الأمر لا يستدعي أن تترك الجلسة ومضت لحالها.

كانت الساعة تقارب الثانية عشرة وكانت عائشة تتميّز غضبًا لكنها تمهّلت وهي تقترب من باب البناية خوفًا من رواد السينما القريبة المجتمعين أمام مدخلها لدخول حفلة منتصف الليل. توقفت تمامًا قرب الباب تراقب الحشد السارح في الشارع. مراهقون، مجموعات

من شباب أحياء القاهرة المختلفة، عائلات تبحث عن تسرية طفيفة عن حياتهم الرديئة. التقت عينها بعين أحد المارة وانتابها فزع من المرور بينهم بحذائها طويل الرقبة وقميصها الحريري، فعادت لمدخل العمارة وطلبت سيارة من سيارات أوبر. في اللحظة ذاتها كان المصعد يهبط من أعلى. فكرت أنه قد يكون عمر؛ في ذهنها رأته يطاردها معتذرًا بينما تسبقه إلى الشارع صامة أذنيها عن أسفه. لكن الباب انفتح لتخرج منه سيدة عجوز منحنية القامة، بيضاء الشعر، تجر وراءها حقيبة تسوق قديمة الطراز. خطر لها أن تسألها إلى أين تذهب بحقيبة تسوق في الثانية عشرة صباحًا، قبل أن تتوقف السيدة وتنظر لها متفرّسة في ملامحها:

- إنتِ مين؟

نظرت لها عائشة بعين زجاجية، غير عالمة كيف ترد. قالت مرتبكة:

- أنا... أنا مستنية تاكسي.

- طب وإنتِ ماشية اقفلي باب العمارة كويس، أحسن فيه عيال مدمنين بييجوا بعد نص الليل يضربوا حقن وزفت في المدخل، والعمارة مالهاش بوّاب. إنتِ مش منهم، صح؟ شكلك مش منهم...

ثم تجاوزتها دون أن تسمع ردها، تجر حقيبتها تجاه باب العمارة وهي تغمغم في انزعاج:

- البلد بقت زفت، وماحدش بيحترم حد، وصوت المزيكا عالي في الخامس، وكلمت البوليس ماحدش جه...

خرجت السيدة وفي اللحظة ذاتها رن هاتف عائشة. سيارتها وصلت.

ليلة قلقة ونوم صعب المنال. ارتدت ملابس الجري ونزلت لركضة حول مربعها السكني لعل الإرهاق ينيمها. عادت بعد نصف ساعة لحمام ساخن، لا أمل. فتحت كتابًا وأغلقته. فتحت فيلمًا وأغلقته. جربت حتى اللعب على جهاز البلاي ستيشن الذي تركه زوجها وراءه. لا نوم. الساعة

تقترب من الثالثة. غدًا الجمعة وسيذهب عمر لزيارة أمه في الإسكندرية في الصباح. هل سيحادثها؟ هل ستحادثه؟ كانت تستعيد ما حدث. أوجعها كيف أنكرها في لحظة. ربما تعيّن عليها أن تنسحب من النقاش مبكرًا؟ ربما كان يجب أن تشتري كلبًا؟ أن تنجب؟ لن يحادثها. هل سيعتذر أصلًا لو حادثها؟ سخر منها أمام أصدقائه وسكت عن إهانتها. ظلت تحدق في الحائط الأبيض في غرفة الاستقبال قليلة الأثاث. أتت بسيجارة حشيش كانت تخبّئها احتياطًا تحسبًا لليلة مثل ليلتها هذه. أشعلتها وسحبت نفسًا مرتجلًا سعلت على إثره سعلة ظنت من شدتها أن قلبها سيخرج متدحرجًا على الأرض أمامها. أطفأتها ونظرت في ساعتها. كانت الساعة تقترب من السابعة صباحا. هل مرّت عليها حقًا سبع ساعات في هذا البؤس؟ ارتدت ثيابًا قطنية ثقيلة وخرجت للتمشية.

صباح الجمعة في المعادي. تجمع لممارسة اليوجا في إحدى الحدائق القريبة من بيتها، عدّاءو القاهرة، ميكروباص يجتمع فيه عدة شباب في طريقهم على الأغلب إلى سيناء، وتوك توك يستغل غياب المرور في الصباح ليعبر من شارع عشرة. قدماها تقودانها باتجاه البيت، بيته. تملكها فزع حينما انتبهت. انحرفت يمينًا من شارع عشرة إلى شارع تسعة ناحية توكيل مرسيدس. مر بجوارها المترو محدثًا جلبة شديدة. مشت في الاتجاه العكسي لشارع تسعة متأملة المحال المغلقة. قهوة الثكنات حيث التقته أول مرة. فكرت في الورد، وعادت أدراجها أمام القهوة. شارع عشرة مرة أخرى، ثم شارع القنال. بحثت عن سيارته. كانت قابعة أمام مدخل البناية؛ لم يسافر لأمه بعد إذًا كما هي عادته في نهاية الأسبوع. أو ربما سافر بالقطار. اتجهت إلى باب العمارة ودفعته بعنف لعلها تلتهي عن خواطرها السوداء.

الطابق الأخير، الشقة إلى اليمين، هذا ما قاله لها من قبل. لكن هناك شقتين إلى اليمين، ولم تكن تعلم على وجه الدقة أيهما شقته. ظلت

تفكر في غرابة الموقف لو أيقظت جيرانه. ماذا عساها قائلة إن دقت الباب فانفتح عن وجه غريب في السابعة من صباح الجمعة؟ أيهما شقته؟ البابان متشابهان لكن أحدهما بعين سحرية حديثة التركيب، خمّنت أنه بابه وألصقت أذنها به. كان صوت الموسيقى عاليًا. بدت لها مألوفة لكنها لم تستطع تبين المغني. أين استمعت لها من قبل؟ زوجها السابق؟ أمها؟ الأكيد أنها لم تكن موسيقاها.

انفتح باب من خلفها فجأة. التفتت. كان أحد الجيران يحمل أكياس زبالة سوداء مرتديًا بيجامة وبدا أن النوم لم يفارق وجهه بعد. حدّق فيها كأنما ليتأكد إن كانت حقيقية أم لا ثم بادرها:

- بتدوّري على حد؟

لم يدر الأمر بحسبانها، أنها تبحث، أن أحدًا سيسألها عن وجهتها. باغتها السؤال، كأنما طرقع أحدهم إصبعه فأفاقت من سبات عميق. دارت على أعقابها ونزلت مسرعة على السلم بينما الرجل ينادي ورائها:

- يا آنسة... يا آنسة!

أكان المنزل أكثر دفئًا أم كان جسدها ساخنًا إثر الركض العنيف باتجاهه؟ لم تحب ذلك البيت يومًا. آن لها أن تتركه. ستبحث عن بيت جديد. ستذهب إلى مأوى الكلاب القريب لتتبنّى كلبًا. ستبيع ما تبقى من أثاث زواجها أو ستتركه على ناصية الطريق. عدّدت الأشياء التي ستفعلها في الغد، بينما تسرّب النوم رويدًا إلى عينيها.

أشياء لا تحدث
إلا في مترو منتصف الليل

كنت أنظر باتجاه القاهرة الغارقة في ظلمة ليل الشتاء البارد مستندًا إلى سور الشرفة في الدور الحادي عشر من بناية على حافة هضبة المقطم حينما طرق التهويم المنغّم مسامعي:

- تاااا تا تا تا تا تااا، تا تا تااا، تا تا تااا...

كأنما فتح الصوت بابًا في خيالي، خرجت الكلمات من فمي في سلاسة:

«London Bridge is falling down, falling down, falling down;
London Bridge is falling down, my fair lady».

تطلعت إلى مصدر الصوت بجواري. كانت فتاة، لم أسمعها تدخل. كنت غارقًا في فكرة هشة تطايرت ما إن طرق اللحن أذني. ظلت شاخصة أمامي للحظة قبل أن تلتفت وهي مستمرة في إصدار الصوت نفسه. هزت رأسها محيّية فرفعت زجاجة البيرة في يدي باتجاهها محييًا ثم جرعت منها.

- معاك ولّاعة؟

- بتضربي عالولّاعات؟

- لأ.

- يبقى معايا.

مددت يدي بالولاعة، أعادت إشعال سيجارة حشيش انطفأت جذوتها. سحبت نفَسًا من السيجارة وناولتني. رفضت في البداية - صار لي شهران أحاول الإقلاع عن الحشيش - إلا أنها أعادت تقديم يدها بالسيجارة. وقفت لحظة مترددًا، ثم تناولتها من يدها وسحبت نفسًا عميقًا. صوّر لي الدخان الصاعد من فمي أن القاهرة تحترق، وسرتني الخاطرة.

- الجوب مطوِّل؟

صعد صوت الفتاة بجواري فرددت السيجارة إليها معتذرًا. ابتسمت في خفة وهي تعيد إشعال الجذوة المنطفئة. كانت سمراء، بعين خضراء متقدة. مضت لحظة، ولاحظت ابتسامة ساخرة تتلاعب على فمها. أدركت أنني أطلت النظر في عينها وانطلقت مني ضحكة عصبية عالية.

- شكله اشتغل..

- لا أنا بس بقى لي شهرين ماشربتش.

- شهرين؟ وعارف تعيش في القاهرة إزاي؟

كانت عيناها قد اجتذبتاني للمرة الثانية فلم أجب. رسمة الكحل المجنّحة تضفي خفة على وجهها الباسم، وإن كانت نهايته المدببة تنذر بالخطر. هل رموشها طويلة حقًا كما تبدو؟ أم أنه فعل الماسكرا؟ حاجباها محددان بدقة ومتوازيان مع جناحي كحل عينيها.

- هما خُضر ولّا رمادي؟

- هما إيه؟

- عينيكِ.

ابتسمت - في لطف هذه المرة - ومررت السيجارة. في اللحظة ذاتها اقتحمت سارة الشرفة. كنت أعلم أنها هي من وقع خطوها على الأرض؛ ذلك الثقل الناجم عن الغضب، الغضب الذي احتضنته كجزء ضروري من العالم في الأشهر الأخيرة. توقّفت يدي بالسيجارة في منتصف الطريق. فكرت لوهلة أن أرميها، لم يبقَ منها الكثير، لكن الأمر بدا مهينًا تحت ضوء الأعين الخضر الكاشفة. بادرتني سارة بعنف وقد وقفت بيني والفتاة التي تشاغلت وكأن الأمر لا يعنيها:

- إنتَ هنا بقى لك قد إيه؟

- شوية.

- شوية من ساعة ما جينا مثلًا؟

- محتاجاني في حاجة؟

- آه، تعالالي المطبخ.

سبقتني لتترك لي مساحة كي أعيد سيجارة الحشيش، قدّرت لها حساسيتها في هذا الأمر على الأقل. مددت يدي بالسيجارة للفتاة التي ظلّت متشاغلة بهاتفها، لترد يدي بلطف.

- خليها معاك، شكلك حتحتاجها.

ابتلعت سخريتها المريرة بابتسامة حاولت أن تبدو غير مهتمة وراهنت على أنها لم تبد إلا ما حاولت أن أخفيه تحديدًا. قدرت أنني قد أحتاج السيجارة لاحقًا هذه الليلة حينما أخلو لنفسي بعدما تنام سارة، فأطفأت جذوتها في إطار مدخل الشرفة ووضعتها في جيبي واتجهت إلى المطبخ.

كان الطريق إلى المطبخ مليئًا بالصناديق المغلقة وحقائب السفر وأناس يحزمون كتبًا وقطع ديكور صغيرة، وعلى مبعدة كانت هند تلملم ما تبقّى من ملابسها الملقاة على أرض الصالة.

هند ستهاجر. أزعجني الأمر كونه تذكرة بحجم الخسائر الإنسانية التي مررت بها مؤخرًا؛ البعض إلى لندن، والبعض إلى برلين، والبعض إلى نيويورك، والآن هند إلى تورونتو.

لم تكن هند صديقتي على وجه الدقة، كنت أراها بصفة شبه يومية كونها أقرب صديقات صاحبتي، كانت أحد أولئك الأشخاص الذين يسعون لامتلاك أصدقائهم عبر امتلاك كل الأشخاص المهمين في حيواتهم، لذلك استجبت للود الذي أبدته تجاهي منذ بدء العلاقة حتى أشهر قليلة مضت، حينما بدأت معاملتها لي تتغير كأنما هي انعكاس لعلاقتي بسارة؛ كأنما خمّنت أن علاقتي بسارة لن تصمد كثيرًا، فقررت أنه لم يعد من المهم أن تستثمر أكثر في علاقتها بي. منذ ذلك الحين تفاديت لقياها حتى ألحت سارة أن آتيَ معها لأساعدهما في حزم محتويات الشقة ضمن مجموعة من الأصدقاء: «حتهاجر، مش حتشوفها تاني، عشان خاطري» وافقت في النهاية، والآن أفكر ربما كان من الأنفع أن أبقى في البيت لأشاهد حلقة أخرى من «لعبة العروش».

كانت سارة تنتظرني متحفزة في المطبخ وقد انتثرت حولها على الأرض أوانٍ وأطباق وصناديق فارغة بانتظار ملئها وأكياس من الفقاقيع البلاستيكية وقطع صغيرة من الفلين. اتجهت مباشرة إلى الثلاجة لأجلب زجاجة بيرة أخرى منتظرًا أن تبادئني الحديث، لكنها وقفت ترمقني بنظرات حادة بينما فتحت زجاجة البيرة وجرعت منها جرعة طويلة. في النهاية قررت أن أقطع الصمت:

- كنتِ عايزاني في حاجة؟

- عايزاك في حاجة؟ إنتَ من ساعة ما جينا وإنتَ واقف في البلكونة!

- فين المشكلة؟

- إنتَ مستفز، إنتَ عارف كدا؟

- ليه يا سارة؟ صاحبتك جايبة صحابها يلموا معاها الشقة وأنا معرفش حد، أخدت قزازة بيرة ووقفت في البلكونة، إيه الغلط في كدا؟

- لا مافيش غلط خالص، براحتك.

لحظة سارة المفضلة في اليوم: الغضب السلبي لسبب أجهد نفسي في معرفته دون جدوى قبل أن ينفثئ في وجهي في وقت يستحيل التنبؤ به.

- بالراحة بس، قوليلي أنا عملت إيه.

- ماعملتش حاجة خالص.

- والنبي بس بلاش الجو دا، قوليلي فيه إيه وأنا لو غلطان حعتذر وخلاص.

- لو غلطان؟ لا إنتَ زي الفل، عادي جدًا تاخد قزازة بيرة وتسيبني لوحدي وتقف في البلكونة تحشش مع واحدة ما تعرفهاش، عادي.

- يا سارة صاحبتك قدامها كام يوم وحتسيب البلد وماشية، أنا قلت أسيبك تقضي معاها حبة وقت بدل ما أفضل كابس على نفسكم.

- لا حسيس قوي!

كان مزاجي قد تعكر بما يكفي ولم أقو على احتمال المزيد. أعني حقًا، ما الضرر؟ كنت لأتلقى اللوم في الحالتين لأن لا علاقة للأمر بهند ولا الهجرة ولا الحشيش ولا الفتاة ولا البيرة ولا الشرفة ولا أي شيء مما تدّعي. والأسوأ أن كلينا يعلم، لكن أحدًا منا لا يجرؤ أن يبوح بما يجول بخاطره حقًا للآخر.

- أنا فعلًا مش فاهمة إنتَ جيت ليه.

- أنا جيت ليه؟ مش إنتِ اللي كنتِ عايزاني آجي؟

- تمام، بس لو حتقضّي الليلة بتحشش في البلكونة يمكن كان أحسن لو قعدت في البيت.

- فيه إيه يا سارة؟ ما أنتِ عارفة إني ما بطيقهاش، وقعدت تقوليلي دي آخر مرة حتشوفها وآديها ماشية وسايبة البلد وحيبقى لطيف منك لو جيت وأنا عايزاها تحس إن الناس حواليها وبتاع، عايزة مني إيه تاني؟

- طب ولما إنت ما بتطيقنيش جاي تخلص بيرتي ليه؟

كانت العبارة الأخيرة لهند، ظهرت من اللامكان على مدخل المطبخ. كدت أرد عليها لكن طاقتي للجدال كانت قد نفدت تمامًا. في حركة مسرحية وضعت زجاجة البيرة على طاولة المطبخ وأخرجت من جيبي خمسين جنيها تركتها على الطاولة ذاتها، وانتهزت فرصة دهشتهما فسارعت بالتقاط سترتي الجلدية وغادرت.

على السلم وقفت أحكم غلق السترة خوفًا من برد المقطم القارص. أم هل كنت أتلكأ لعل سارة تلحقني؟ لا أعرف. لم أكن غاضبًا على وجه الدقة، لكن أمرًا بشأن علاقتي بسارة كان يثير انزعاجي بوتيرة عالية مؤخرًا. نبرة معينة ربما؛ الطريقة التي يتشكل بها صوتها في الفراغ حينما آتي ما يزعجها. أو ربما ما يزعجني حقًا أن أغلب ما آتيه مؤخرًا يزعجها. مر زمن كانت علاقتنا تبث في نفسي شعورًا أنني ملك العالم، الآن تنتقد سارة لقاء أصدقائي على القهوة، مشاهدة المسلسلات، طول ذقني، حتى ليالي البوكر -التي تصادفت مع موعد لقائها الأسبوعي بصديقات مكتبها القديم وكانت تقابلها فيما مضى بالترحاب كونها تمكنها من الخلوّ إلى حياتها الاجتماعية- صارت محل نقد.

كنت قد قابلت سارة منذ ثلاث شتاءات مضت، ليلة رأس السنة.

مضت إليّ متسائلة: «إحنا نعرف بعض؟» لم تكن تعرفني حقًا، لكن أسعدني ظنها. تصاحبنا بداية فبراير وقضينا رأس السنة التالية في الفراش في شقة صغيرة مستأجرة في الزمالك. مضت علاقتنا هادئة كصفحة النيل الذي أطلت عليه شرفة شقتنا حتى تعرضت للهزة المالية الأكبر في حياتي. لم تعرض عليّ أي أعمال لمدة عام؛ لا سيناريوهات لأفلام دعائية قصيرة، لا ترجمات، لا صحافة، لا كتابة لإعلانات، لا شيء. في الوقت ذاته كانت سارة - مدفوعة بقلقها بشأن اقترابها من منتصف الثلاثينات - تفكر أن الوقت قد حان للزواج. لم تصرح، ولكن الأمر كان محسوسًا.

في تلك الآونة استمررت في البحث عن عمل حتى ولو مؤقتًا. كانت الأزمة خانقة لكن سارة أبدت كرمًا فائقًا، وبدا أننا سنصمد للأبد. إلا أن بعد فترة من البحث بلا جدوى بدأ التوتر في النفاذ بثقة إلى علاقتنا. كنت أرفض الخروج برفقتها مع أصدقائها، في حين تحملت هي جل مصاريف البيت. أصبح الهروب وتفادي الدخول في مناقشات جدية عن الخطط والمستقبل هي المهارة الأهم في حياتي اليومية، لكن الأمر لم يكن ليستمر كذلك للأبد. استغللت مرور شهرين على مساهمتي الأخيرة في الإيجار وانسحبت من المنزل عائدًا إلى بيت أمي.

الشارع بارد. ضممت ذراعي على صدري وحككتهما بيدي اتقاءً للبرد. لا فائدة. مددت يدي إلى حافظتي لأحصي نقودي بعد استعراض المطبخ العنتري. ثلاثة وعشرون جنيهًا، لن تكفي للوصول إلى المنزل في الدقي. نظرت في ساعتي، كانت العقارب تشير إلى الحادية عشرة والنصف. عشرون جنيهًا حتى محطة مترو العتبة طبقًا لعدادات التكاسي البيضاء مع ترك هامش للتلاعب المعقول، وجنيهان لتذكرة المترو. كان الطريق خاليًا فأملت أن ألحق بالمترو قبل الثانية عشرة.

مرت دقائق عشر قبل أن يظهر تاكسي مضاء من الداخل بأنابيب نيون ملونة قصيرة. سألته قبل الركوب إن كان العداد يعمل، أخبرني أن لا، كدت أصرفه فسألني عما أرغب في دفعه فأخبرته «عشرين». سألني إن كان بالإمكان أن «أهزها» قليلًا، هززت رأسي بصلابة عالمًا أني أقامر بالمشي من المقطم إلى الدقي في برد ديسمبر القارص. بدا عليه التفكير للحظة ثم قال، «اركب».

مضى كالمجنون، حاولت التجاهل في البداية لكن مشهد منحنيات طريق النزول من المقطم أقنعني أنه ربما جنبتني عبارة تحذير مصير أسود، وإن خاطرت بأن يعتقد عني أنني «خول» آخر ممن يملأون المدينة في هذه الساعة. أخبرته أنني لست على عجلة من أمري، هدأ سرعته قليلًا ورمقني بنظرة ساخرة:

- يا باشا ما تخافش!

ثم عاد وأسرع قائلًا:

- معلش، أصل ورايا ماطش طاولة في إمبابة.

شغلني جرس الهاتف عن معاندته. كانت سارة هي المتصلة.

- أيوا يا حبيبتي.

- أيوا يا بسام.

كنت قد قررت أن أتحدث وكأن شيئًا لم يحدث، وظننت أنها ستكلمني بحذر، لكن لم يبد على صوتها الارتباك. كان هناك حزم واضح في صوتها؛ لم تكن ترتجل، كانت تهاتفني بهدف واضح.

- إنتَ فين دلوقتِ؟

- مروَّح.

- عند أمك؟

اللعنة! كنت أحب سخريتها هذه حينما كنا ما زلنا نتعارف، كانت تهلكني ضحكًا حينما تقرر أن تنكد عيش أحدهم، باللطف والخفة. الآن لا أجد ما هو خفيف بشأن سخريتها، الآن لا أكاد أتبين طريقي في أكثر أحاديثنا عادية وتكرارًا.

- بقولك طيب، ما تيجي عالبيت؟

- إشمعنى؟

- هو لازم يبقى فيه سبب عشان أقولك تعالى عالبيت؟

- في العموم لأ، بس يمكن النهاردا آه.

- لا مافيش، أنا بس عايزة نقعد نتكلم.

تلك النبرة اللعينة! كنت أعلم أنها لن تدع ما حدث في بيت هند يمر دون «نقعد نتكلم»، لكن عجلة ما في صوتها أثارت انتباهي. لم يكن الأمر مطمئنًا، لم يكن كسائر تلك الأيام التي ترغب فيها في الجدال حتى مطلع الفجر قبل أن ننغمس في جنس عنيف ننام بعده هادئين لنترك متاعبنا اليومية للصباح.

- بلاش النهاردا يا سارة.

- بلاش ليه؟

- عشان مش حاسس إن الوقت كويس، وأنا تعبان، وإنتِ عايزة تتخانقي.

- مين اللي عايز يتخانق؟ إنتَ خلاص مش قادر حتى تقعد نتكلم كلمتين؟

- حكلمك لما أصحى بكرة يا سارة.

أغلَقَت الخط في وجهي.

اشتعلت بداخلي نارًا حتى أنني لم أدرك أنني قد وصلت وجهتي إلا

حينما نبهني سائق التاكسي. تذكرت شجارًا نشب بيننا حينما ادّعت أنني لم أساعدها في تنظيف الشقة في أعقاب حفلة استضفناها. أجهدت نفسي في شرح أنني كنت قد أديت دوري في اليوم السابق قبل النوم لكن قدرتها على الجدال التهمت أي محاولة في تحكيم المنطق بيننا.

على رصيف المترو وقفت منتظرًا القْطار. كانت المحطة خالية إلا مني ومراهقين ممسكين بموبايل صيني رخيص يصدر منه صوت صاخب لا يتناسب مع حجمه لأغنية مهرجانات لم أسمعها من قبل. وصل القطار وقفزت فيه في حين ترددت في المحطة تحذيرات مفادها أنه حالما يغادر هذا القطار فلا قطارات أخرى لهذه الليلة. في نفس الوقت اندمج المراهقان في لعبة بدت لي كنوع من الروليت الروسي محدود التكاليف، ظلا يقفزان داخل وخارج القطار ليريا إن كان الباب سيغلق عليهما وهما خارجه أم داخله. اتخذت مقعدي متوترًا خوفًا من أن يعلق أحدهم بين القطار والرصيف. ربح رهانهما في النهاية؛ أغلق الباب وهما بالداخل، فحمدت الله واسترخيت في مقعدي.

كان صوت الموسيقى مزعجًا حقًا ولم أكن في مزاج طيب، لكن إحدى تلك القدرات الخارقة التي تكتسبها بمرور الزمن كقاهري حق هي القدرة على التجاهل، أيًا كان ما يدور حولك؛ لو انقلب العالم رأسًا على عقب فبإماكنك غلق رأسك على نفسها بحيث لا ينفذ إليها شيء. كأنما قرأ المراهقان أفكاري، شرعا في الغناء بصوت عالٍ مع الموسيقى الصاخبة أصلًا. التفتّ حولي لأرى إن كان هناك من يبد انزعاجًا من الموسيقى سواي. لم يكن هناك سوى سيدة عجوز بصليب ضخم على صدرها ترتدي قميصًا وتنورة أسودي اللون تغالب النوم على الرغم من الضوضاء، ورجل في الأربعينيات عائد من نهاية وردية مسائية لا يسعى إلا للوصول إلى فراشه بأي ثمن، وزوج من المحبين بديا راضين بغفلة الناس عنهم وبقبلات عصبية يختلسانها مجترئين بالخلو النسبي لعربة القطار.

توقفت الموسيقى فجأة، خمنت أن بطارية الموبايل قد فرغت. استلقيت على ظهر المقعد في راحة مستسلمًا لإيقاع صوت حركة القطار، قبل أن يطرق أذني حديث المراهقين.

- بقولك إيه يا مودا.

- إيه؟

- ما تيجي نفتح الباب والمترو بيتحرك؟

تابعت باستمتاع الفتى الأكبر -بشعره الخشن الغارق في كيماويات من نوع ما لجعله أنعم وبراقًا- يرص الحجج، بينما الفتى الأصغر، مودا - الخائف بشكل واضح من تبعات فعلهما - يحاول أن يثنيه عن عزمه. خمنت أنهما لن يجرؤا على المحاولة، لكن أكبرهما وضع يده بالفعل على حافة الباب.

- يالا يا مودا!

- يا عم حنخش في حوار مالوش لازمة.

- يالا يلا ما تبقاش كس! محدش هنا حيقول حاجة.

حتى هذه النقطة لم أكن مهتمًا، كانا مراهقين أسكرهما التستستيرون. استبعدت منذ البداية أن يشرعا حقًا في تنفيذ رغبة حمقاء كإيقاف المترو، لكن ثقة الفتى الأكبر أزعجتني. وزنت خياراتي جيدًا. كبرجوازي اعتدت على شق طريقي بين متاعب القاهرة اليومية بالمفاوضات اللفظية؛ كان البعد عن العنف الجسدي قرارًا اتخذته بعدما أكلت علقة محترمة من سائق تاكسي إثر خلاف على قيمة الأجرة أثناء سنين الجامعة كنت قد بادأته فيه بالعنف. أيضًا سيكون الأمر شديد الإهانة إن ضربني مراهقان لم يجاوزا العشرين من العمر. لم أكن متأكدًا من تقدير الطريقة الأنسب لمقاربتهم لكن الغضب انفلت بداخلي. نهضت من المقعد متثاقلًا واتجهت نحوهم.

- إنتوا بتعملوا إيه يا رجالة؟

صُعِقا. يبدو أن الفتى كان مصدقًا بالفعل أن أحدًا لن يراجعه فيما يفعل. بدا عليه الارتباك قبل أن يجيب: «ولا حاجة». كدت أعود إلى مقعدي لكن نشوة ما دفعتني لكي أتمهل.

- ولا حاجة إزاي؟ أنا سامعك وإنت بتقول له يالا نفتح الباب والمترو بيتحرك.

استعاد الفتى الأكبر توازنه سريعًا وقرر أن يستكشف حدود قدرته على الرد بحذر لا يخلو من عدائية:

- طب وإنتَ يهمك في إيه يا عم؟ شايفنا فتحنا ولّا قفلنا؟

- ما إنت بتقول لصاحبك محدش حيقول حاجة، فأنا بقولك أهو: ما تمدش إيدك عالباب.

علا صوتي قليلًا. اندهشتُ من نفسي. تبادلا نظرة غير مستريحة ثم تراجعا من أمام الباب بينما احتفظت بموقعي. ساد الصمت للحظة وبدا أن الموقف انتهى أو أوشك. ألقيت نظرة على عربة المترو. لم يلتفت لنا أحد. تذكرت رواية ألبير قصيري «منزل الموت الأكيد». كانت هذه هي القاهرة؛ بيت موشك على السقوط بينما ساكنوه في غفلة عن أنفسهم وعنه.

وقفت إلى جوار الباب لأضمن ألا يعاودان المحاولة، بينما وقف مودا وصاحبه أمامي وقد بدا عليهما الإحباط. كانت تلك من المرات القليلة ربما التي يصطدمان فيها بحدود قدراتهما في مدينة يسيطر مراهقون - مجازيون وفعليون - على مقدراتها. أخرج أكبرهما كيسًا من اللبان وقدم لي واحدةً نصف ساخر، كأنما يساوي بيننا في ذهنه. رددت يده ثم بادرته:

- اسمك إيه يا شبح؟

فوجئ الفتى مرة أخرى. في شجار الشارع يحرص الناس على ألا يدلوا بأي شيء يدل على هويتهم إلا في حالات التحدي القصوى. المجهولية تجنبك تحمل عواقب أفعالك عادةً. لكن ما إن تسأل الأسئلة - وطرح السؤال سلطة في ذاته - فلا يسع المرء إلا الإجابة عنها بصدق.

- حسن، ودا محمود.

- إنتم منين؟

- من الدقي.

- منين من الدقي؟

- العزبة.

- بسام، من سليمان جوهر.

مددت يدي مسلمًا بينما بدا عليهما القلق. بدا أن تنميطهما قد فشل؛ لم يتوقعا سليمان جوهر من هيئتي على وجه التحديد. لم أكن مرتاحًا بدوري لكونهما من العزبة. في سنوات المدرسة الثانوية ضُربت مرارًا على يد فتية من العزبة قبل أن نتصادق في نهاية الأمر، صداقة قلقة انتهت بالطبع حينما عمل بعضهم بعد انتهاء الثانوية مباشرة واتجه أغلبهم إلى كليات أقل شأنًا، لكن لا تزال العزبة لا تستدعي في ذهني سوى الخوف من ساعة خروج طلاب مدرسة الأورمان الثانوية بنين.

- تعرف النجار؟

انتزعني مودا من خواطري بسؤاله. لم أكن أعرف النجار، على الأغلب كان أحد المسجلين خطر في سليمان جوهر، أو ربما كان مجرد مراهق بلطجي، لم أستطِع التحديد.

- إنتَ عندك كام سنة؟

- سبعتاشر.

- والنجار دا من سنك؟

- لا أكبر.

- أكبر كام يعني؟ تسعتاشر؟

- عشرين.

- لا أنا معرفش حد من سنه دا. تعرف إنتَ توتّا وفنّو وشباب جاد عيد؟ دول أصحابي.

بدا عليهم توتر طفيف. كانا يعرفانهم. لم أكن لأذكر تلك الأسماءً لو كنّا في موقف آخر غير موقفنا هذا، لكن معرفتهما الأسماء أكدت لي أن الأمر كان يستدعي على الأغلب. الأمر أنني كنت أكذب بلا خجل؛ لم تكن علاقتي بهؤلاء الناس تتجاوز مشاركتهم -غير الفعالة في واقع الأمر- في الوقوف في اللجان الشعبية أثناء احتجاج الثمانية عشر يومًا الذي عم القاهرة. كان مشهدي واقفًا بجوارهم -بينما يحملون السيوف والكزالك والهراوات المليئة بالمسامير- بعصا بيسبول وغطاء للرأس تلقيته كهدية من صديق مكسيكي يثير الضحك بلا شك.

أصدر القطار صريرًا عاليًا بينما توقف في محطة الدقي. راقبت توالي قطع السيراميك والركاب النادرين المنتظرين على الرصيف. انفتح الباب فخرجت منه، ولاحظت أنهم لم يتبعوني.

- مش نازلين؟

هم أحدهما بالنزول فأمسكه الآخر.

- لأ، حننزل في البحوث.

- بس كدا أبعد..

انغلق باب المترو قبل أن يتمكنا من الرد وتحرك القطار. غسلني شعور آنيٌّ بالزهو والانتصار. أخرجت هاتفي وطلبت رقم سارة، وعاجلتها قبل أن تستطيع الحديث:

- إنتِ روَّحتِ؟

- أيوة

- طيب أنا جاي عالبيت.

الثانية ظهر الثلاثاء

«الحياة مؤسفة عمومًا».

ترددت عبارة أمها الأثيرة في ذهنها كبندول ساعة بينما تستقر في جلستها في المقعد الخلفي من تاكسي أبيض وأسود بائس كان هو الوحيد الذي قبِل أن يذهب بها إلى الهرم في صبيحة ذلك اليوم الربيعي.

كانت تشعر أحيانًا حينما تستمع إلى تعليقات أمها عن الحياة أنها تستبطن نوعًا غريبًا من الإيمان. إيمان مبني بالكامل على الاعتقاد بأن الحياة فخ محكم الإغلاق، سجن، ولا سبيل لاجتيازه سوى بالصبر على مكارهه. لم تحب أمها أباها كثيرًا، لكنها لا تتذكر أنها تشاجرت معه يومًا غضبًا لنفسها. مات وارتدت السواد أربعين يومًا لم تنقص لحظة، ثم خلعته بهدوء وواصلت الحياة. روتين بسيط من الأعمال المنزلية والجارات ومشاهدة المسلسلات التركية وقراءة القرآن. كان البيت يضمهما وقد خلا لهما بعد موت أبيها وسفر أختها بصحبة زوجها للمعيشة في دبي ككلبين اجتمعا في ملجأ للحيوانات الضالة.

الجو حار ولا أمل في حركة قريبة. من ذا يشغل الشوارع صباح

الثلاثاء؟ لمَ لا يذهب الموظفون إلى أشغالهم والطلبة إلى مدارسهم وربات البيوت إلى... إلى بيوتهن، ويتركون لها الشارع خالياً؟ ماذا تفعل هي أصلًا في تاكسي قديم تفوح منه رائحة البنزين صباح الثلاثاء؟

خطر لسناء أن جميع من في الشارع هم مثلها، مطلقات في طريقهن لالتقاط حاجياتهن القديمة من بيوت الزوجية المهجورة. أمتعتها الفكرة؛ مصر... بلد التسعين مليون مطلقة. ابتسمت في مرارة بينما تنظر جوارها إلى فتاة في العشرينيات تقود سيارة كورية رخيصة وتضع على عينيها نظارة شمس سوداء، خمّنت أنها تلبسها لكيلا تبدو دموعها هي الأخرى.

الجامعة تقترب والشارع مغلق. يرفع سائق التاكسي صوت الراديو الذي ينقل أحداث زيارة الرئيس للجامعة. ألم يجد الرئيس يومًا أفضل لزيارة الجامعة؟ كانت قد توقفت عن متابعة الأخبار منذ الطلاق حفاظًا على عقلها. ليتها لم تفعل، هاهي عالقة بلا أمل قريب في النجاة. أي نجاة في القاهرة؟ ملايين مكدسة يحدوها أمل في تدخل إلهي ينقذها من مصير محتوم والخلاص عزيز.

عقارب ساعة الجامعة تشير للحادية عشرة. وجهت السائق للعودة والخروج من شارع مراد. مرت ثلاثة أشهر على الطلاق ومنذ ذلك الحين لم تقرب ذلك الجزء من المدينة. قروح لم تلتئم كما يجب وأخاديد عميقة في الذاكرة.

شارع مراد مزحم، نفق الهرم مزدحم، وهي والسائق عالقان ببعضهما. هاجمها هلع مفاجئ، لوهلة فكرت أن تفتح باب التاكسي لتركض في الاتجاه المعاكس. أين المفر وكل الطرق في القاهرة مليئة بالناس؟

أرادت أن تغمض عينيها لتفتحهما على مشهد الأفق فوق جبل الطور. أغمضتهما يأسًا ثم خطر لها لم لا؟ حتمًا هناك في العالم ما هو أغرب من فتاة تختفي من مقعد خلفي لتاكسي في وسط القاهرة لتظهر ثانية

على قمة جبل. خفتت أبواق السيارات في أذنها للحظة. فتحت عينيها. لا شيء. ما زالت في نفق الهرم.

صدرها ضيق. أخبرتها أمل منذ أسبوعين أنها على استعداد أن تذهب معها لشقتها القديمة لتساعدها في جمع ما تبقى من أشيائها، بعدما ضاقت بشكواها من إحجام أمها عن الذهاب بدلًا منها. حادثت أمل في الصباح ولكنها لم ترد. كان من الممكن أن تؤجّل الأمر ليوم آخر، لكنها شعرت أنها ربما قادرة على القيام به دون خسائر كبيرة. ما هو أسوأ ما يمكن توقعه؟ الذكريات؟ أوَتؤلمها ذكرى بأكثر مما يؤلمها حاضرها ذاته؟ أمها، حياتها الراكدة، الوحدة. كانت تتقلب بين قيعان اليأس وقمم الأمل مئات المرات خلال ساعات اليوم؛ حتى نومها لا يرحم.

الساعة الآن الحادية عشرة والنصف؛ ستقضي ساعتين في جمع أشيائها، ربما ثلاثًا، ستقضي ما شاءت شريطة أن ترحل قبل عودة سيف للمنزل في السادسة، ثم ستعود لتنام. ربما تترك غرفتها اليوم وتخرج لتتبادل الصمت مع أمها أمام المسلسل التركي. لا خطط لليلة، لا خطط لنهاية الأسبوع، لا خطط لما تبقى من الحياة.

المنزل يقترب. تأمر سائق التاكسي أن يستدير ليمشي في الاتجاه المعاكس، يستدير متأفّفًا. تأمره أن يدلف يمينًا فيرمقها بحدة في مرآة السيارة. لم يكن ليأخذها لو كانت حددت وجهتها بدقة، لذلك اكتفت بقول «الهرم» وافترض هو أن ذلك سيعني الشارع الرئيسي لا خاتم المرسلين. بدا للحظة أنه يفكر في أن يتركها على ناصية الشارع، غير أنه على الأغلب آثر تجنّب الشجار بسبب حرارة الجو وأطاعها.

فيلا أخرى تُهدم ليصعد مكانها برج. أكوام متراصة من الطوب الأحمر والرمل وشكائر الأسمنت، هدم وبناء. لا تكاد تتبيّن المدينة من كثرة ما جرى بها. كانت تتطلع حولها في صمت إلى محال البقالة

وأكشاك السجائر والمارة المألوفين وتفكر أنها عاشت هنا قبلًا، فقط في حياة أخرى.

توقّف التاكسي أمام مدخل البناية. نقدت السائق أربعين جنيهًا. التفت لها مثبّتًا عينه في عينيها، زادته عشرة أخرى وخرجت من السيارة وقد صرفت عن ذهنها خاطرة أن تطلب منه أن يمر ليأخذها في الواحدة. رفعت رأسها إلى الشرفة لترى إن كان شيء قد تغيّر. لا شيء. لم تفتقدها الشرفة ولا يبدو أن شيئًا يفتقدها.

خطت بداخل البناية بأسى تعاظم مع توالي خطواتها. دلفت إلى المصعد، رفض أن يقبل مفتاحها. يبدو أن القفل قد تغير في أثناء غيابها. تنهّدت وشرعت في صعود درجات السلم.

في الطابق الخامس كان التعب قد نالها. وقفت قليلًا لالتقاط الأنفاس لتلعن عنادها الذي أتى بها إلى هذا المكان مرة أخرى. هل تستحق أواعي مطبخ وبضعة كتب وفستان فرحها هذا العناء في مثل هذا الجو؟ كانت تريد أن تبعث لسيف برسالة مفادها أنها مستعدة لمواصلة حياتها. لا بد أنه يضحك، أي حياة؟ كلاهما يعلم الحقيقة: الخامسة والثلاثين تحل قريبًا والعالم لم يعد ملعبها كما كان في العشرينيات. ملأتها الفكرة بالحنق. همت باستكمال صعودها، لكن بابًا انفتح فجأة بجوارها.

- سناء!

كانت ألفت، شابة لطيفة حديثة العهد بالزواج، تعرفت سناء عليها وعلى زوجها حينما أتيا للبناية قبل سنة، ونشأت بينهم علاقة طيبة. كانت الأفكار تتسابق في ذهن سناء؛ قد اختارت الثلاثاء صباحًا لتضمن أن البيت خالٍ إلا من ربات البيوت اللائي لم تعرف أغلبهن. الآن ستكون عليها مواجهة لطف ألفت دون مرارة بادية ودون أسى.

- إزيك يا ألفت؟

قالتها من بين أسنانها، لكن ألفت لم تبالي - وربما لم تنتبه - وكأنما كان ذكر اسمها على لسان سناء كافيًا لإزاحة غرابة المشهد. اقتربت واحتضنت سناء بشدة، فدعت سناء الله ألا تلاحظ ألفت اهتزاز بدنها.

- أنا قاعدة مستنية الراجل بتاع محل السمك وقلت حيتلخبط في الشقة كالعادة، فلما سمعت صوت عالسلم قلت أكيد هو، حظي بقى ألاقيكِ! كدا يا سناء ما تخبطيش؟ دا إنتِ واحشاني جدًا!

كانت ألفت تتحدث دون توقف، في الوقت الذي كانت سناء تفكر فيه في كيفية الانسلال دون أن تبدو فظة. لكن التفكير في الأمر أرهقها، كان قلبها مثقلًا بما يكفي لتهتم بصورتها في عين ألفت؛ لتفلت الآن وتشرح لاحقًا.

- وإنتِ كمان واحشاني يا ألفت. معلش، أنا لازم ألحق أطلع البيت ألمّ حاجتي قبل ما سيف ييجي، إنتِ عارفة بقى الطلاق.

وجمت ألفت، بدا وكأنها كانت تحاول تفادي سيرة الطلاق أو علمها به على الأقل.

عاتبت سناء نفسها. «إنتِ عارفة بقى الطلاق»؟ أي نوع من العبارات هذه؟ كيف يمكن لفتاة في أوائل العشرينيات لم يمض على زواجها عام أن تعلم بشأن الطلاق؟

تراجعت ألفت منكمشة إلى عتبة شقتها.

- ربنا معاكِ يا سناء، لو احتجتِ أي مساعدة كلميني، أنا ماوراييش حاجة.

ابتسمت لها سناء وهزت رأسها، ثم استكملت صعودها الصعب باتجاه الطابق الثامن.

عاندها قفل الباب في البداية، ثم ما لبث أن خضع لضغطة يدها

الخبيرة. وقفت أمام الباب لحظة ثم دفعت جسدها للداخل وأغلقت الباب. كما توقعت، كان المنزل غارقًا في الأتربة والفوضى. مر بجوارها صرصار أزاحته بقرف واتجهت رأسًا لغرفة النوم.

على الرغم من أن حال الشقة أوحى لها أن امرأة لم تخط داخل الشقة قريبًا، منذ رحلت هي غالبًا، كان أول ما تفحصته هو سلة المهملات بجوار فراشه. نظرة عابرة كانت كافية لتتبين أنها خالية من أي أوقية ذكرية مستعملة. مررت يدها على الملاءة. لا شعر أنثوي. تنهدت في راحة. لم تكن على استعداد لمعرفة معلومات من هذا القبيل. ارتمت على الفراش على وجهها وسكن جسدها للحظات. كانت تشم رائحته في ثنايا الفراش. عرق، تبغ، وجبات سريعة. افتقدته بشدة.

قضت أوقاتًا سيئة في الأشهر الماضية تتدرب على أمرين كليهما مر: توطّن نفسها على غيابه وتمنّيها بعودته، وبينهما تتذكر وتنسى. كانت صديقاتها يشتمنه فتنهض من مجالسهن غاضبة. بعد فترة لم تقوَ على تحمل المزيد من المرارة وانقطعت عن جلساتهن. أكانت المرارة هي السبب حقًا؟ في مرة حوت جلستهن الأسبوعية مطلقتين سواها، وبين دخان الشيشة المتصاعد من ثنايا جلستهن في ذلك المطعم الفاخر على النيل انفتح حديث على خيبات عاطفية. روت كل منهما حكاية عن طلاقها؛ فتاة أخرى، خلافات مع الأم حول السيطرة انتهت بانتصار الحماة. سألت إحداهن سناء عن الحكاية. حكت، لكنها حكت عن حبهما، عن زواجهما العسير، عن طلوع الشمس عليهما بعد ساعات من الجنس العنيف. حكت ما تذكرته ثم تبينت أن لا حكاية لديها عن الانفصال. لا حكاية. ما عساها قائلة؟ انهزمت الثورة؟ سيضحكن بلا شك من وقع الكلمة. من ضمن كل الأشياء التي يمكن أن تصف بها الثورات فالأكيد أنها مبرر تافه للطلاق. لم يطالهما شيء، لكن فشلت مساعيهما في الهرب. كانت تحاول استعادة الحياة القديمة ثم أدركت

أنها ذهبت إلى غير رجعة. لا الصديقات القدامى يرجعنها ولا المطاعم الفاخرة على النيل. منذ تلك الجلسة انقطعت عنهن وقضت جل أيامها في البيت بجوار أمها أمام المسلسل التركي.

نهضت من الفراش واتجهت إلى النافذة هربًا من خواطرها السيئة عالمة أنه لا مهرب هناك. ربّاه كم تكره القاهرة! الطوب الأحمر والماء العفن يسريان في شرايين المدينة بلا توقّف. نظرت في ساعتها. تأخّرت. كانت تفكر أنها ستنهي ما جاءت له في نصف ساعة على الأكثر، مرت خمس وأربعون دقيقة ولم تشرع بعد فيما أتت له.

اتجهت إلى إحدى خزانات المطبخ وأخرجت صناديق ورقية، أغلقتها بإحكام وخرجت. من أين ستبدأ؟ الكتب؟ الملابس؟ أواعي المطبخ؟ لم يكن هناك الكثير من الملابس، فقط فستان الفرح وعدة قمصان نوم. قدرت أن الكتب ستبتلع جل وقتها فقررت أن تبدأ بها.

المكتبة على حالها، قديمة ومتعبة. كانا قد اشترياها من محل لبيع الأثاث القديم بوسط البلد وتولى عنهم البائع نقلها وتركيبها. بدأت مشاكلها في الظهور بعدما اشترياها بشهر؛ انهار أحد الأرفف تحت الضغط، وتصدع أحد جوانبها. أرادت سناء أن تعود إلى المحل لتلقم البائع مكتبته الخربة وأراد سيف إثبات ذاته كرجل بإصلاحها. فشل، لكن ترتيبًا غامضًا أقامها لتلك اللحظة. اللحظة التي تعود فيها سناء لتقيّم حياتها فتجدها أشبه بمكتبة خربة أقامها ترتيب غامض.

«الأمير الصغير» لها، اشترته بالفرنسية من سور الجامعة أملًا في أن تستطيع قراءته بالفرنسية يومًا. على هوامشه خط فتاة من كلية آداب قسم لغة فرنسية ملت الدرس ووجهت رسائلها بالعربية للمجهول؛ أسماء أغنيات لأم كلثوم، محاولات ساذجة لخط الشعر. بلغ الأمر نهايته حينما وجدت نفسها تعود للكتاب لا لقراءته ولكن لتصفح خواطر الفتاة.

«قصة مدينتين» أيضًا. تلك الافتتاحية، آه! ظلت ترددها طوال السنوات الفائتة: «كان أحسن الأزمان، وكان أسوأ الأزمان». كانت تتمثل كلمات ديكنز مع كل خطوة تخطوها في شوارع القاهرة وتفكر، أكان لا بد للثورة أن تمر عبر رأس «سيدني كارتون» المسكين؟ أكان لا بد للثورة أن تمر على أجسادهما، على زواجهما بالغ الضعف قليل الحيلة؟

كانت التفرقة سهلة؛ أغلب التاريخ له باستثناء كتاب عن تاريخ الجنس، أغلب الأدب لها باستثناء طبعات مكتبة مصر من أعمال نجيب محفوظ. توالت الكتب على قاع الصندوق: ماركيز، أَينْدي، بوشكين، ديكنز، تواين، تشيكوف، و«البحث عن الزمن المفقود» يصحبها للبيت الثالث دون أن تقرأه. أزاحت المجلدات السبعة ومن خلفهما ظَهَر كتاب صغير. أمسكته في تأثر، قلبت صفحاته. جلست على الأرض إلى جوار المكتبة وقرأت:

«كل القصائد التي كتبتها لكِ
كنتُ حينها في غرفتي
وكنتِ في فراشك في بيتكم البعيد
الآن كيف ستبدو قصيدة
أكتبها أمامك؟»[1]

كانت الدموع تجري على وجهها تأثرًا ولا تستطيع لها إيقافًا. تركت الكتاب إلى جوارها واستسلمت لوقع الأبيات على روحها. هل أحبته لأنه اختار هذه الأبيات تحديدًا ليخبرها عن حبه؟

كان خجولًا على عكس اسمه. عرفا بعضهما في اجتماعات لجنة

---

(1) الأبيات لمحمود عزت من قصيدة «الرقة بالغة العنف».

من لجان الثورة، شابين غرّهما الانتصار وأشاع في نفسيهما الوهم أن الآتي خير مما مضى. أحبها في صمت لعام قبل أن يستجمع شتات نفسه ويرسل لها الأبيات ذات ليلة. قررت ساعتها أنها لن تتركه يفلت دون أن تستنطقه عما يشعر حقًا. سألته في تغابٍ: «يعني إيه؟»، رد في خجل غاضب: «يعني مش عارفة يعني إيه؟». كانَ ثمرة دانية القطاف. في اليوم التالي مر عليها في عملها أثناء استراحة الغداء. طلبت منه أن يرافقها إلى بيت إحدى زميلاتها بالجوار لتطعم قطتها لأنها خارج المدينة. أتى معها وحالما دخلا من الباب مد يده وأمسكها من معصمها، جذبها إليه وقبّلها. عض شفتها السفلية بعنف فتأوّهت، تراجع معتذرًا قائلًا إنها أولاه. لم تصدقه فزاد ذلك من حرجه. بدا أمامها طفلًا بفارق الخمس سنوات الذي يفصلهما، نظرت إليه في ارتباكه فاجتاحها حنان لم تعرف أنها قادرة عليه. جذبته إليها وقبّلته، قبلة، اثنتين. تواقعا، على بلاط تلك الشقة في جاردن سيتي تواقعا. كانت ترسم لحياتها مسارًا مختلفًا حتى تلك اللحظة، بعدها تخلت عمّا تبقى لها من ترتيبها القديم. قابعة على الأرض وهي تتأمله يضع ملابسه على جسده فكرت؛ ذلك أمر جديد لم أعرفه قبلًا. هل كانت القصيدة هي السبب؟ الأرجح أنه لا.

باغتها جرس الهاتف. أمها تتصل. مدت يدها لتغلق صوت الجرس مسرعة كأن صوت الرنين الآلي يخترق جسدها. مسحت دموعها من على وجهها بسرعة خوفًا من أن تراها أمها. أخذت نفسًا عميقًا وردت بصوت متماسك. لم ترد أمها شيئًا بعينه، على الأرجح شعرت بالذنب أنها لم تكن معها، فأرادت الاطمئنان أن كل شيء على ما يرام. لم يكن هناك ما يرام بشأن أي شيء، أو تحديدًا بشأن شعورها في تلك اللحظة. من يروم أن يشعر وكأن شرفة سقطت بكامل زهورها على رأسه؟ طمأنت سناء أمها بكلمات مقتضبة، أخبرتها أنها سترحل في غضون ربع ساعة أخرى وأنهت المحادثة ثم أغلقت الهاتف لكي لا يباغتها ثانية.

رمت الديوان على قمة الكتب التي كوّمتها في الصندوق الورقي ونهضت. صادفتها صورة وجهها في زجاج شباك الصالة. كان الكحل قد سال على وجهها مع الدموع. لا بأس، لا بأس. لا معنى للحياة دون ألم. أو ربما لا معنى للحياة أصلًا. توجهت إلى الحمام، نظرت في مرآة الأجزاخانة الصغيرة فوق الحوض. عيناها متعبتان وشفاهها جافة. لم تجد الصابونة على الحوض ففتحت الأجزخانة لترى إن كانت هناك صابونة أخرى. كانت الخزانة خالية إلا من علبة دواء واحدة. سيبراليكس. جيد. ربما كان ليمد في زواجهما عامًا آخر لو كان استمع لنصيحتها بالذهاب إلى طبيب نفسي. أو عامين. أو عمرًا مليئًا بأقراص السيبراليكس.

خرجت من الحمام بعد أن غسلت وجهها ونظرت في ساعتها. ساعة أخرى مضت. أين يختفي الزمن في جنبات هذه الشقة اللعينة؟! كم عامًا مر عليها برفقته؟ لا يهم، يجب أن ترحل. لم يتبق لها الكثير على أية حال؛ أواني المطبخ، قطع ديكور صغيرة في الصالة وغرفة النوم، وفستان الفرح. خرجت للمكتبة وسحبت صندوق الكتب لتضعه بجوار الباب ثم أخذت صندوقًا فارغًا ودخلت إلى غرفة النوم.

الأباجورة ذات القاعدة الخزفية، لها. عرائس الماترويشكا الحمراء، لها. وحدات الإضاءة الجلدية، لها. الملاءة ذات المثلثات الملونة، لها. تمثال الإله جانيش، لها. الكليم السيوي الصغير، لها. تغيرت ملامح الغرفة بالتدريج بينما تنتزع حاجياتها من أركانها. أراحها الأمر. فكرت أنه سيفتقد الأشياء على الأقل. سيفتقدها حتمًا. تفتقده كثيرًا.

خرجت إلى الصالة بالصندوق واستكملت جمع أشيائها من على الحوائط والطاولات الصغيرة المتناثرة. بقيت أواني المطبخ، والساعة تشير إلى الواحدة والربع. ودت لو آوت إلى فراشهما، لكنها تعلم ما

في الأمر. لا راحة في فراش هجرنا قبل أن نهجره. تنهّدت وسحبت صندوقين آخرين ومضت للمطبخ.

هل تترك الكيتشن ماشين أم تأخذها؟ كانت هدية من أمها لها، لكنها كانت تعلم كم كان يعتمد عليها في إعداد طعامه. كانت تريد أن تأخذها على سبيل النكاية لأنها تعلم ذلك تحديدًا، لكنها وجدت حرجًا في الذهاب بها بهذه البساطة، فقررت أن تتركها للنهاية. لكنها لم تتردد في أخذ طقم الحلل الستانلس، سيأتي بغيرها بسهولة. طقم الصيني الذي انتقته بحرص شديد أيضًا. طقم الزجاج الحراري. المقشرة العجيبة. الطاجن المغربي. غلاية المياه، البراد الفخار. ملأت الصندوقين ولم تنته بعد. وقفت في وسط المطبخ شاعرة بدوار خفيف. لم تأكل منذ البارحة. اتجهت للثلاجة مفكرةً «لم لا؟»، ستأكل ساندويتشًا خفيفًا ثم تكمل جمع حاجياتها.

فتحتها فلم تجد بها سوى علبة من الجبن الأبيض. لم تتوقع المزيد على أي حال. أخرجت خبزًا مثلجًا ثم فتحت أحد الدواليب بحثًا عن طبق نظيف لتضع الخبز في المايكروويف. كانت طاولة المطبخ مليئة بالأواني والأطباق المتسخة. اتجهت للحوض، انتقت طبقًا وغسلته.

كانت لتتحرك باتجاه المايكروويف بعدها لكن شيئًا ما أوقفها. مشهد الأطباق في الحوض، كأنما انكشفت على ضعف بالغ الجمال. كان سيف في الشهور الأخيرة يحتمي بالصمت من كل شيء. كانت تتذكره في بداية معرفتهما، ظاهر الهشاشة فائق اللطف، ثم تفكر كيف صارا إلى ما صارا إليه؟ كانت تقف أمام برج صغير من الأطباق وتفكر أي حياة يحياها من دونها؟ كيف ترك حبهما وراءه؟ هل كان ضروريًا أن يفترقا ليجتمعا وقد عرف كل منهما قيمة ما بينهما؟

قبل ليلة من انفصالهما الأخير كانا عائدين من سهرة في بيت أحد

الأصدقاء، وفي التاكسي اقتربت بيدها من يده فأبعدها دون أن ينظر إليها، ثم التفت لها وأشار برأسه إلى سائق التاكسي. لم يكن يبالي من قبل، لكنه في الشهور الأخيرة أضحى أقرب للانتباه الشديد في الشارع. لو كانا وُلدا في مدينة أخرى ربما كان حبهما لينجو، لو كانا وُلدا في مدينة أخرى ربما لم يكونا ليلتقيا. أمين مكتبة في الخامسة والعشرين من شبرا ومحامية في الثلاثين من المعادي. سألها ذات مرة: «تفتكري كنا اتقابلنا لو ماكانتش الثورة حصلت؟». كانت تخبره بيقين كاذب أنهما كانا ليلتقيا، لكن لقاءهما عبر أطراف المدينة كان ليكون مستحيلًا. كانت تعلم وكان يعلم، كانا بحاجة لثورة ليجتمعا، وكان حبهما بحاجة لانتصارها لينتصر. اجتاحتها شفقة رهيبة، عليهما، على بؤس تشاركاه دون ذنب كبير لأن العدل ليس مناط العالم. فتحت صنبور المياه، التقطت إسفنجة وبدأت في الغسيل.

كعادتها بدأت بالأكثر صعوبة. قطع متجلطة من الزيت والدهن المحترق في طاسة القلي، بقايا متعفّنة في حلة طبيخ مهملة. العديد من الدلائل على محاولات طبخ فاشلة انتهت به على ما يبدو إلى بقايا الوجبات السريعة التي صادفتها في غرفة نومه. طفلًا ما زال، وقعا في الحب فعرض عليها الزواج من فوره. لطالما تعامل مع العالم بحسن نيّة. صدقته، ما كانت تحسب أن يهزم حبهما شيء.

هزمتهما القاهرة؛ فرّقتهما كما رأت المظاهرات تتفرق تحت وابل قنابل الدخان. بين خيبة عامة وحزن خاص لم يكن هناك معنى للاستمرار. كانا يحاولان تجاهل ما يحدث حتى أتى اختطاف أحد أصدقائه وقرار الآخر بالهجرة ليحل الصمت. انتهت نشوة السنتين الأوليين وحلت سنوات الدم. أصبح اليومي هو لعبة مستمرة للهروب من حقيقة أنهما خارج السجن وعلى قيد الحياة بينما تجمع السجون والمنافي والقبور رفاق الأمس. عرضت عليه أن تطلب نقلها لمكتب شركة المحاماة

التي تعمل بها إلى دبي، رفض. سألها في مرارة: «وحشتغل أمين مكتبة هناك؟» قلبت يدها في يأس وسكتت. ليتها جرته من ذراعه. لكن خوفها من صورة زارتها في الحلم لهما فوق سطح برج زجاجي أقنعها أنه على الأقل لن ينتحر وأمه وأبوه في المدينة نفسها. هل تبكي ثانية؟ لا، لن تذهب الدموع بما بها ولو بكت مقلتاها دمًا.

كانت مندمجة في غسيل المواعين فلم تستمع إلى صوت المفتاح ينغرس في قفل باب الشقة. لم تنتبه إلا على صوت سعلة أتت من ورائها وباب الشقة يغلق بصوت عالٍ. فلتت منها «أحا!» خافتة، وشعرت بوهن مفاجئ في ركبتيها. لم تبلغه أنها آتية اليوم تحديدًا، لكنه كان يعلم من أمل أنها ستأتي يومًا ما خلال الأسبوع. سمعته يسعل مرة أخرى. يبدو من صوت سعلته أنه مريض، ربما لذلك غادر عمله مبكرًا. نظرت إلى ساعتها، كانت تشير إلى الثانية إلا عشر دقائق. هل تلكأت أملًا في لقائه؟ لا تدري، لكن ها هو على أي حال. تشعر به يجول في الشقة وراءها، يمشي باتجاه المكتبة ويتوقف، يدخل الحمام، يفحص غرفة النوم. لم تلتفت. اجتهدت في الحفاظ على تنفسها منتظمًا ومضت في غسيل الأواني حتى شعرت به يدلف إلى المطبخ.

سعل، سعل بعنف. كانت تريد أن تلتفت لترى كيف يبدو، هل أبقى على لحيته الخفيفة أم أزالها؟ وشعره؟ هل انخفض وزنه من جراء نظامه الغذائي الرديء؟ أي قميص يلبس، هل يلبس القميص الأزرق الذي اشترته له من دبي حينما كانت تزور أختها؟ هل زجاج عوينْاته مغبّر بانتظارها لتأخذها برفق من على أنفه وتمسحه في قميصها؟

سعل مرة أخرى وقد سحب كرسيًا صغيرًا وجلس وراءها بجوار باب المطبخ. لم لا يتكلم؟ لم لا تلتفت؟ سمعت صرير أرجل الكرسي على الأرض إذ يدفعه قائمًا. أغمضت عينيها. يخطو، وخطوه يقترب. جسدها محموم يشتاق إلى يده. من مكان مجهول تغني إلا فيتزجيرالد «قربك».

كأنها رأت هذا الحلم قبلًا. تخرج من جسدها لتراهما وقد احتضنها من الخلف وقبلها على رقبتها. تدفع رأسها للوراء لتعطيه فسحة كي يصل بشفتيه أبعد إلى منبت رقبتها. تستدير، تنظر إلى وجهه، أوحشها وأوحشته. يهمس في أذنها: «تعالي».

توقف صوت إلا فيتزجيرالد وأفاقت من خواطرها على صوت باب غرفة النوم يغلق. التفتت وراءها. لم يكن سيف هناك. عضت شفتها مدركة بؤس حالها. كانت مياه الصنبور تتدفق على يدها بينما ظل أكثر من نصف الأواني في الحوض غير مغسول. همت للحظة أن تعود للتنظيف ثم رمت بالإسفنجة شاعرة بالبلاهة. أغلقت الصنبور كيفما اتفق، والتفتت حولها للمطبخ وقد تناثرت في أرجائه أشياؤها بانتظار رصّها في الصندوق. همّت بالعودة إلى الصناديق ثم شعرت بعبث ذلك المجهود. هي لا تحتاج الحلل الاستانلس ولا طقم الصيني، وكتبها لم تعد لقراءتها منذ قرأتها في المرة الأولى ولن تعود لقراءتها على الأغلب، و«البحث عن الزمن المفقود» أعقد من أن تخصص وقتًا لقراءته. وعرائس الماترويشكا كانت هدية من أبيها لها في الصغر وكانت تخيفها أصلًا. وتلك الشقة كريهة، وذلك الحي، وهذا البلد. وسيف تركها، تركها إلى غير رجعة، تركها ببساطة من نزع من قدمه شرابًا واشتمه ورماه على كومة غسيل. تركها لا لأن الثورة هزمت، ولا لأن القاهرة مدينة كريهة، لكن لأن حبه لها لم يكن كافيًا، لأنه ما زال لم ينته من عشرينياته وهي في منتصف ثلاثينياتها، لأنه يريد التخلص مما يثقله ليمضي خفيفًا. أما هي، فلا بأس من أن تسقط قليلًا، لا بأس إن لم تتعجل النهوض. الحياة ستمضي برغم كل شيء، وستمضي معها.

نظرت سناء في ساعتها، كانت تشير إلى الثانية. أزالت مفتاح الشقة من سلسلة مفاتيحها. تركته على طاولة صغيرة في مدخل البيت، تركت وراءها صناديقها، ورحلت.

واحدة بواحدة

- النسوان دول لولا السكس كانوا اتركنوا فوق الدولاب.

قالها أحمد بثقته المعهودة. كنت أعلم تمام العلم ما أنا بصدده: جولة ليلية بالسيارة في أنحاء العاصمة تعني تكديرًا في العلاقة مع منى.

كان أحمد ومنى هما أوّل من تزوجا ضمن أصدقائي. لم أكن في تمام الرضا عن القرار لكنني تظاهرت بالعكس، إلى أن بدأت المشاكل تطفو على السطح لأصبح محط سرّيهما بوصفي أكثر أصدقائهما قربًا؛ موقع لم أسعَ إليه تمامًا لكنني لم أرفضه بما يكفي من الحزم. منذ فترة أتت لي منى لتشتكي من أنها اكتشفت أن أحمد يمارس العادة السرية. كنت أعلم بالطبع، جميعنا يمارس العادة السرية، لكن لامرأة تقليدية متزوجة عاملها أبوها كأميرة منذ ولدت بدا الأمر مزعجًا بشدة. لم أشأ أن أدخل في تفاصيل الأمر واكتفيت بتطييب الخاطر، إلا أنها أخبرتني أنها استشارت أحد مواقع الإفتاء فيم ينبغي أن تفعله بخصوص الأمر، فأفتاها الشيخ بأن تنهره وأن تربط يده إلى الفراش إن عاد! نصحتها مخلصًا ألا تتبع الفتوى إن كانت ترغب في توقف سوء العلاقة عند ممارسة أحمد

للاستمناء، لكنها بدت يائسة وراغبة في الإقدام على فعل انتحاري. احتضنتها مربتًا على ظهرها، قبلتني، أوقفتها، صفعتني. منذ ذلك الحين لم أعد إلى منزلهما، لكن أحمد لم يعلم عن الموضوع.

لم يرغب أحمد في تطليقها؛ لن يكون الأمر جيدًا أمام العائلة، لن يكون جيدًا أمام الأطفال، لن يكون جيدًا على أي صعيد. الزوج الذهبي، الأبناء الساطعون لسياسة واقتصاد قسم إنجليزي – جامعة القاهرة يفشلون! على الأغلب شعر أحمد بالمسؤولية حيال الزواج كمفهوم مجرد؛ أراد أن يثبت للجميع أن الزواج ليس سيئًا كما يعتقدون. وجد أحمد عظمة معينة في أن يكون زوجًا مستمرًا في زواجه بغض النظر عن محتواه الذي لم يعلم عنه أي أحد سوى ثلاثتنا.

أما أنا فكنت أعاني من مشكلة مختلفة تمامًا. كانت علاقتي بهدى هادئة للغاية، وكنت أتوق لبعض الحماسة. التقيت هدى في مناسبة فنية لا أتذكرها، سارت علاقتنا بروية، انتقلت للعيش معها في شقة صغيرة على أطراف المعادي، ساعدتنا ملامحها الأوروبية وباسبورها الألماني في إقناع مالك العمارة والبواب والجيران أن كلينا أجانب - على الرغم من بشرتي السمراء وشعري الأجعد - مما عنى معاملة مختلفة وأكثر تحررًا من التحفظ على اعتبار أننا أجانب منحلون وسذج على الأغلب.

ورثت هدى ملامح أمها الأوربية وصفات والدها المتأملة. كان فنانًا تشكيليًا قبطيًا من شبرا، غادر القاهرة إلى ألمانيا في أعقاب تصفيات الناصريين واليساريين من المؤسسات الحكومية أواسط عهد السادات، وتعرف على أمها في مستشفى بعدما تورط في شجار أحمق مع مجموعة من النازيين في بار. كانت الأم لطيفة حقًا، لكن الفنان التشكيلي الهارب من الأكشن القاهري في السبعينات آثر أن يعود ثانية ليصبح جزءًا من الترتيبات الجديدة. تدرج في المناصب دون أن يلقي بالًا لحياته السابقة قبل أن يموت في تفجير عبثي في ميدان التحرير في التسعينيات.

أتت هدى إلى القاهرة بعد وفاة أمها لتبحث عن أبيها، قبل أن تكتشف أنه مات. قضت فترة في حزن قبل أن تكتشف أنه كان خنزيرًا عديم الأخلاق على الأغلب (وربما كان مظلومًا لكن تلك النسخة من القصة كانت أكثر إثارة للراحة). فقدت هدى والدها، لكنها أحبّت القاهرة؛ شيء ما فيها أعجبها. لا أريد أن أطري ذاتي، لكن ربما كان هذا الشيء أنا.

في المرة الأولى التي رأيتها فيها سألتها عن هيرمان هيسه فقالت إنها لا تحبه، وشرعت تتحدث عن أسباب عدم حبها لرواياته. أخبرتها بشيء من الحرج أنني لم أقرأ له شيئًا لكنني كنت فقط أحاول أن أتخيل موضوعًا ممكنًا للبدء في حديث. ابتسمت في تفهم، أعطتني نمرة هاتفها وطلبت مني أن أحدثها. حدثتها في اليوم التالي فسألتني لم لا أوافيها إلى مكتبها. كان نهارًا كسولًا، أخذت تاكسي إلى وسط البلد حيث كانت تعمل، كانت بانتظاري وأخذتني للعب الطاولة وشرب السوبيا المثلجة في قهوة بباب اللوق. كان يجب أن أستنتج شيئًا ما من ذلك المزاج، لكن سحر اللحظة كان أقوى؛ العصر هادئ ومريح، القهوة تبدو كدارٍ مسنين مصغرة، وأنا هنا والآن أمامها بينما يرشف اثنانا كوب السوبيا بتلذذ.

بعد فترة كنا قد تزوّجنا. أخذتني إلى ألمانيا لنزور قبر أمها وقبر هيرمان هيسه إكرامًا لدوره في الجمع بيننا، ثم عدنا للقاهرة. عامين، أم عامان؟ هل يهم النحو حقًا في انزياح الوقت إلى حيث لا أدري؟ كانت علاقة سعيدة ثم صارت علاقة. هناك شيء ما بخصوص هدى، ليس ما يمكن أن تتوقعه تمامًا حينما تعلم عن حياتها. بعض الجنون؟ بعض النزق ربما؟ لا شيء من ذلك.

في العام التالي كانت حياتي تشهد بعض النشاط؛ أنهيت الدكتوراه وتلقيت قليلًا من العروض للنشر بعدها، ألقيت عدة محاضرات ودعيت

إلى عدة مؤتمرات، حصلت على وظيفة تدريس في إحدى الجامعات، وتكونت لي قاعدة ضيقة من المعجبين. في عقب إحدى المحاضرات اقتربت مني فتاة متفجّرة الحضور لتخبرني أنها معجبة للغاية بالمحاضرة لكن لديها اعتراضًا على نقطة محدّدة في طرحي. أخبرتها أنني متعجّل وأعطيتها رقمي وأخبرتها أن تهاتفني لتستوضح عن مسألتها بشكل أعمق. ابتسمت ولم أفهم لِمَ. أخذت أفكر في مغزى إعطائي إياها رقم هاتفي الشخصي وليس عنوان بريدي الإلكتروني مثلًا، وعزوت ذلك لرغبتي في إرضاء غروري بأن تريدني إحداهن بالشكل الكافي لرفع سماعة الهاتف ومحادثتي. في اليوم التالي حادثتني ولم أرد، ولم تحادثني ثانية.

انصرفت أفكاري لاحقًا لكيفية ترميم علاقتي بهدى. كنت أشعر بأننا أصغر سنًا من أن تكون لحياتنا هذا الإيقاع الرتيب. كنا في الثلاثينيات نعم - كانت تكبرني بخمس سنوات كاملة - لكن ذلك الملل والرتابة كانا أكبر من احتمالي.

- كل النسوان عايزة الجدر، تديها الجدر تهبط على طول.

عادت عبارات أحمد الحاسمة وتأملاته في علاقته بالنساء لتجتاح عالمي. كنت أحاول أن أفيده بنصيحة ذهبية حول وجوب انفصاله عن منى، فنظر لي هازئًا ملولًا كأي شخص سمع من صديقه عبارة واحدة آلاف المرات.

- الطلاق دا للخولات اللي زيك، الرجالة ما يطلّقوش.

لم تكن هناك فائدة من مجادلة منطقه، عند وصولي لتلك النقطة من حواراتنا عادةً كنت أتحرر تمامًا من العقلانية وأسأله عن جوب الحشيش الأخير لندخن بينما نقطع كوبري أكتوبر جيئة وذهابًا.

- إزاي طيب تنعش حياتك الزوجية يا حمادة؟ أنا عارف إنها منتعشة على طول، بس يعني إزاي تديها زقة كدا؟

- غُط من ورا مراتك.

- انا عايز أنعش حياتي الزوجية يا أحمد، مش أدخّلها الإنعاش.

- ما دا حينعشها، صدّقني.

استرسل أحمد في الحكي حول تلك المرة التي سافر فيها مع منى إلى الجونة الشتاء الماضي. في إحدى الليالي شعرت منى بالتوعّك بينما مضى هو ليقابل أحد أصدقائهم القدامى. مع تأخر الصديق كاد أحمد أن يترك البار ويمضي لولا فتاة لبنانية كانت في رفقة ملولة على ما يبدو، بادلته النظرات قبل أن يأتي صاحب أحمد. على البار تركت له الفتاة رقم هاتفها، الذي سرّبه النادل بدوره لأحمد بعد مضي صديقه للحمام. بعد انتهاء موعده كلم أحمد الفتاة ليصعد إلى غرفتها، وقضيا وقتًا سحريًا وسريعًا وغير معتاد.

- زي ما بقولك كدا، هو الجدر.

بعدما انتهى عاد إلى منى، نظر إلى وجهها بينما هي نائمة وعرق الحمى يتراكم على جبهتها، وشعر بمدى قذارته.

- شهرين يابني بعدها، هدايا وفسح وسفر وسكس، سكس كتير، وأكل حلو، ولانجيري نضيف... أحلى من شهر العسل.

لم تعلم منى أبدًا، لكن منى حمقاء على كل حال.

- أحمد يا حبيبي، افهمني. منى دي الحمد لله إنك اتجوزتها لأنها بغبائها دا ماكانتش حتعمل في حياتها أحسن كتير من كدا. هدى بقى ست ذكية، حتطلع دين أمي، وأمك، وأم البت اللبنانية بتاعة الجونة.

- طب أنا عندي فكرة أحسن... حسّسها إن في واحدة من غير ما يكون في واحدة.

- ليه؟

- هي مش حتقدر تثبت عليك حاجة، لإن مافيش حاجة، بس في نفس الوقت حتحس إنها لازم تتلحلح شوية.

- أحمد، هدى معاها ماجستير في العلاقات الدولية، وألمانية أصلًا!

- النسوان كلهم واحد. وبعدين إنتَ مش قلت أبوها من شبرا؟

- آه.

- خلاص يبقى أمان، معانا.

كنت أرى وجه صوابٍ ما في كلامه، لكن كانت لديّ مشكلة لوجستية صغيرة، أن خيالي أفقر من دودة. لابتداع شيء ما يثير غيرة هدى التي لا يحركها عن كرسيها كثيرًا صوت سقوطي في المطبخ كان لا بد أن أفكر في مناطق مختلفة عن الخطابات المزوّرة والصور الممهورة بشفاه يوسف وهبي. عدت إلى المنزل وأنا أفكر فيمَ عساه يكون الشيء الذي قد يثير غيرتها.

كانت هدى لا تمانع جولاتي الليلية مع أحمد كما لم تمانع منى، ولكن من منطقين مختلفين تمامًا. كانت منى حكيمة بما يكفي لمد الحبل لأحمد ليشنق به نفسه في النهاية، بينما كانت هدى واثقة تمامًا من عدم صلاحيتي للعلاقات خارج زواجنا، ولطالما استفزني منطقها هذا. كانت تمارس نوعًا من الإخصاء المعنوي في ثقتها تلك؛ فلا خوف من الخصيان، لا خوف عليهم من الخطأ لأن لا أداة لديهم لممارسته. عدت إلى الغرفة بينما هدى نائمة في راحة بالها المطلقة، وأنا أفكر فيمَ قاله أحمد.

في الصباح، شعرت بهدى تغادر الفراش قبل أن تعود لتوقظني. كنت متيقظًا لكن مغمض العينين، وبينما تهزني لأنهض انسابت الكلمات من فمي: «بس يا ليلى»، قبل أن أتظاهر بالعودة إلى النوم. شعرت بهدى واقفة ورائي في حيرة قبل أن تخرج من الغرفة. نهضت غير مصدّق أن الفكرة قد واتتني ببساطة غير مفتعلة. جلست قليلًا على حافة الفراش ثم نهضت.

كانت هدى في الخارج تعد الإفطار بلا تغير مزاجي بادٍ؛ هادئة كعادتها، تقطّع أطراف التوست وتضعه في الأطباق. قبّلتها واتجهت للحمام شاعرًا بالظفر. من الحمام كنت أسمع إيقاع حركتها في المطبخ وأرقبه، سكتات طويلة تفصل بين صوت فتح الثلاجة وصوت الأطباق هابطة من الأرفف إلى الرخام. كنت أحسب في ذهني الوقت الذي تأخرته الألمانية الدقيقة عن إنهاء أعمالها الصباحية. خرجت وقد أثار فيّ ما بدا أنه خلل في إيقاعها نشوة تافهة.

على طاولة الإفطار كنت أشعر بعينها تحاول اختراق جبهتي بينما آكل بشهية. أخذت أعد في ذهني الثواني حتى تقرر فتح الموضوع، لكنها لم تفتحه على الإطلاق. هل كنت محبطًا؟ مندهشًا؟ ليس تمامًا، فقط شعرت بالغرابة. الآن ماذا عليّ أن أفعل؟ ألاحظت ما قلت؟ ألاحظت وقررت التجاهل؟ ألاحظت وقررت فعل شيء آخر غير مفاتحتي في الأمر؟ هل أعيد طرح الموضوع بطريقة أخرى؟ هل أحمد الله أنها لم تلاحظ وأقرر الرضا؟ كانت الأفكار تتدافع في رأسي وفي الخلفية صوت غليظ: «يلعن دين أمك يا أحمد يا بدر».

بدأت علاقتي بأحمد بطريقة عشوائية تمامًا. كنت عضوًا في أحد الأنشطة الطلابية المعروفة باسم نماذج المحاكاة، تقوم فكرتها على إقامة مؤتمر يمثل فيه المشاركون أنهم دبلوماسيون موفدون عن دول في لجان مختلفة، وكنت أقف بين المحاضرات في كشك صغير لتسجيل بيانات الراغبين في المشاركة. كان أحمد يمر يوميًا في طريقه من تجارة إنجليزي إلى آداب لمدة أسبوع، يقترب مني سائلًا إياي عن إحدى استمارات التسجيل، أعطيه واحدة، ينظر لها في احتقار ثم يلتفت لي قائلًا:

- جبت اللي...؟

أرد غير فاهم:

- إيه؟

يرد في ظفر:

- ألعب باليه!

بعد المرة الثانية كنت قد فهمت اللعبة اللفظية الحمقاء التي يمارسها، وأدركت أي عقل مراهق أتعامل معه. في المرة اللاحقة اقترب:

- جبت اللي...؟

بصوت خفيض رددت:

- بنتابي لو هي...

كأنما خربت قافية ما في ذهنه قال:

- إيه؟

رددت ببساطة:

- خدتك عليه.

ابتسم فاهمًا، وهكذا أصبحنا أصدقاء. سنين ضائعة في التجوال بسيارة والده التي سرق منه مفتاحها بعد نومه، الحديث عن مشاكله مع منى، الحديث عن شجاره في الجيم، الحديث عن مديره وسفره إلى ماليزيا، الحديث عن سخطه على «العيال الخولات اللي بتلبس بنطلونات سكيني»، الحديث عن كل الأشياء التي لا يحدثني عنها أي شخص غيره. وكما عارضت سرًا زواجه من منى، عارض أحمد زواجي من هدى.

- البت مفعوصة يا مان، مافيهاش حاجة تتمسك. دا إنتَ تنيك عصاية مقشة أحسن!

كنت أنهره بقسوة وأقاطعه حتى ينتهي قبل أن يعود إلى قولة وسخة

مثلها، لكنني في قرارة نفسي كنت أخشى تغيّر مزاجي وأقاوم الاشتهاء، كأنني أخاف أن أضبط نفسي معجبًا بما ليس فيها، هدى، وليفتي الألمانية، الأنثى العقل التي تقرأ هيرمان هيسه وتناقش رسالة الماجستير خاصتي كأنها أستاذي.

في التاكسي وأنا في طريقي إلى محطة باص الجامعة ملأ سائق التاكسي ذهني استفسارات حول مصير البلد في ظل أزمة الحكم الحالية، أقسمت بالطلاق أنني لا أعرف مصر رايحة بينا على فين، فتركني بعين مليئة بالتشكك ومضى.

صف آخر، أوجه مختلفة. أبناء أثرياء يملك أباؤهم ما يكفي من النقود لبعثرتها على مصاريف جامعية لا يبدو أنها ستغيّر في مصير أحدهم كثيرًا، ومهنيون يبحثون عن فرص أحسن لمستقبلهم المهني. عيون كابية من أثر النوم ومحاضرة أخرى عن الفكر السياسي العربي. بعد الصف كانت لديّ ساعات مكتبية، قررت أن أقضيها في تصحيح الأبحاث التي اجتهد الطلبة في تلفيقها من ويكيبيديا وبضعة بحوث سابقة.

في المكتب أعددت شايًا لأول مرة منذ سنوات، وجلست أمرّر الأوراق أمام عيني. لم أجد ما يلفت، بصقت الشاي لأنه رديء، لملمت الأوراق وعدت إلى البيت.

كانت هدى ما زالت في مكتبها بوسط البلد، كانت تعمل بكثافة تلك الأيام على إعداد برنامج لموسم ثقافي جديد في المؤسسة التي تعمل بها. حادثتها حالما وصلت إلى البيت لأسالها إن كانت راغبة في أن أنتظرها لنتناول غداءنا معًا، فردت بلا مبالاة أنها ستتأخر على الأغلب وأن بإمكاني أن أفعل ما يحلو لي. لم أستطِع التمييز إن كانت تلك لا مبالاتها العادية أم هي الأولى وقد أضيفت إليها مرارة حادث الصباح. فكرت في مباشرة تصحيح الأبحاث، لكنني فضلت القيلولة.

في حلم القيلولة – وهي أحلام نادرة ومهمة في الأغلب – كنت ألهث جريًا من شيء ما. حلم كلاسيكي للغاية، ولكن ما لم يكن كلاسيكيًا على الإطلاق هو أنه لم يكن هناك شيئًا يطاردني؛ كنت فقط أذرع مساحة الحلم جريًا، خائفًا وشاعرًا بالتعقب. في الحلم نبتت في ذهني الفكرة: ربما أكون خائفًا من فكرة أني طريدة بلا مطارِد، لذلك ربما يجب أن أقف لأنتظر مطاردي، أو أن أرتكب فعلًا أحمق لأحظى بمطاردة مثالية دون خوف.

صحوت على الفكرة وقد راقتني. دونتها على أن أحكيها لهدى ونظرت في الساعة، كانت قد بلغت التاسعة مساءً. خرجت من غرفة النوم إلى المطبخ، أعددت شايًا آخر رديئًا، بصقته وصببت لنفسي كوبًا من البيرة، ثم عدت إلى غرفة مكتبي غير شاعر بالقلق. على المكتب كانت أوراق طلبتي على الطاولة كما تركتها، وإلى جوارِها أوراق أخرى لهدى. بدا لي أن هدى قد عبثت بأوراق التصحيح. جلست لأبدأ عملي لكن انحرافًا مزاجيًا طفيفًا منعني عن مباشرته. حادثت هدى للتأكد من أنها بخير، ردت قائلة إنها عادت للمنزل ثم خرجت ثانية. عدت للنوم مرة أخرى، مطولًا هذه المرة.

في اليوم التالي كنت أقضي ساعاتي المكتبية في الجامعة حينما فوجئت بأحمد يطرق الباب. دخل وطلب مني أن أصنع له كوبًا من الشاي. حذرته، أصر:

– إيه العبقرية يعني في كوباية شاي؟ إيه اللي ممكن يخليها تطلع وحشة أوي كدا؟

أخبرته أنها سيئة حقًا، لم يصدقني حتى ذاقها:

– إيه الخرا دا!

ثم استرسل في الكلام. لم يكن شيئًا مهمًا، لكنه أخبرني أن هدى

كلمته لتسأله عني، إن كان قد لاحظ تغيرًا في مزاجي مؤخرًا. لم تكن من عادات هدى ان تسأل عني أحمد، خاصةً أنها لم تكن تطيقه. سألني إن كنت قد عملت بنصيحته، أخبرته أن نعم، فضحك قائلًا إن نصائحه لا تخيب؛ ها هي لوح الثلج الألماني قد بدأت في الذوبان.

بينما نحن جلوس دق باب الغرفة. دخلت فتاة من فصل الماجستير سائلة إن كان لديّ وقت، بينما تنظر لأحمد. تأخرت في الإجابة لحظة فهمّت بالرحيل، لكنني استوقفتها وأشرت لأحمد بطرف خفي أن يذهب، فقام مخبرًا إياي أنه سينتظرني في جراج السيارات خارج المبنى. جلست الفتاة في وجل، صامتة في البداية قبل أن تستجمع نفسها نهاية الأمر:

- أنا مش عارفة أبتدي إزاي... هو الموضوع غريب شوية.

- اتفضلي، أنا سامع.

- هي مراة حضرتك اسمها هدى الصياد؟

- آه. بس ليه؟

- هي عملتلي آدد على فيسبوك.

هززت رأسي غير فاهم ما الذي ينبغي عليّ فعله. فكرت في أن أمارس بعض السخف، على سبيل استجلاب المزيد من التفاصيل.

- وإنتِ عرفتِ منين إنها مراتي؟

- لقيت صور من فرحكم على البروفايل.

كانت صورة حساب فيسبوك هدى ثابتة منذ عرفتها، صورة قديمة بالأبيض والأسود لأمها الراحلة، غير أنني لم أكن قد تصفّحت حسابي منذ عدة أيام. فتحته سريعًا على هاتفي لتطالعني صورة جساب هدى وقد غيّرتها لصورة من زفافنا ليلة أمس. جلب لي الأمر شعورًا بالرضا،

غير أني تذكرت لفوري سوء موقفي الحالي. اللعنة!

- طيب إيه المشكلة يا ليلى؟ ممكن تكون قرت حاجة إنتِ كاتباها واستظرفتها مثلًا.

- لأ مافيش مشكلة بالظبط يعني، هي بس...

- أيوا؟

- هي بعتتلي رسالة تقول لي إنها سمعت عني كتير وإنها تحب نبقى صحاب وكدا.

ليلى، ليلى! هل جنّت هدى؟ يبدو أنها وجدت الاسم على إحدى أوراق التصحيح فقررت التصرف. لم أفهم هدى كثيرًا، وربما كان ذلك أحد أسباب انجذابي لها. لم أفهم لمَ أعجبت بي منذ البداية على الرغم من دهولتي الواضحة، أو حبها للقاهرة وحفاظها على إيقاع رتيب داخل إيقاع المدينة المجنون. الآن تتخلى هدى عن الكثير من تحفظاتها في سبيل شكها في إقامتي علاقة خارج زواجنا.

- على الأغلب فيه سوء تفاهم، هي ممكن تكون افتكرتك حد تاني. في كل الأحوال ماتشغليش بالك.

في المساء كانت هدى هادئة للغاية، لم تفاتحني في شيء، ولم يبد أن شيئًا يمر بذهنها. كنت أفكر إن كان من الحكمة أن أفتح الموضوع أم لا، وقررت أنه لمَ لا. على الأغلب سينتهي الأمر بمحاضرة حول سلوكي الذي لا يليق بأكاديمي محترم، ومن قال إني أكاديمي محترم أصلًا؟ لكن تلك كانت فكرة هدى عني.

هممت بالحديث، غير أن هدى بادرتني ببرود قاسٍ بأن ليست لديها مشكلة في أن تكون لي علاقة خارج زواجنا، لكن لا داعي لتخريب مستقبلي الأكاديمي بارتباطي بطالبة. استفزني الأمر أكثر، لكنني شعرت أنها ستشعر حقًا بالظفر لو علمت أنني مخصي إلى الدرجة التي تعتقدها حقًا.

لم أشعر أبدًا بالتنافس مع هدى. لم أشعر بأن هناك صراعًا خفيًا على صاحب اليد الأعلى في العلاقة، لكن الواقع كان –وعلى الرغم من عدم انزعاجي– أن هدى كانت تقود. بشكل خفي وتحت دعاوى العقلانية والمنطق، كانت هدى تكبت كل رغباتي البهيمية في التمرغ في الوحل كخنزير في بعض الأحيان. تنتقد أهلي وحياتي السابقة بحياد جدير بدكتور تحاليل، وتحاول إخجالي من مزاحي وصوتي العالي حين السكر. لم أكن كأحمد، صلبًا في الدفاع عن انعدام اتساقي الشخصي، وفي المقابل حاولت تسوية أموري وخلافاتي الشخصية، أو على الأقل إخفاءها تحت فراشنا المشترك.

لكنني الآن أعلم أني منزعج حقًا.

- طبعًا، إنتِ عندك حق. بس ماتقلقيش، الموضوع تحت السيطرة، وكويس إنك عرفتِ ووفرتِ عليّ مجهود كبير في إني أحاول أخبي.

نهضت من على السفرة باتجاه حجرتنا منتويًا النوم، لكني ما إن اجتزت باب الغرفة حتى بدأت في ارتداء ملابسي. في الخارج كانت هدى جالسة تنهي عشاءها بثبات. تمهّلت أمامها بينما أرتدي الحذاء لعلها تسأل أين سأذهب، لم تهتم. خرجت ساحبًا الباب ورائي في عنف.

لم تكن لديّ فكرة حقًا إلى أين سأذهب. كلمت أحمد وانتظرت حتى انقطع الجرس دون رد. فكرت في الذهاب إلى نادي الجاز، لكنني لم أرغب في أن يراني أحد أصدقاء هدى. قلبت في تليفوني فوجدت نمرة سائق خاص اعتدت على الاستعانة بخدماته في السفر إلى المدن القريبة حول القاهرة. حادثته، سألته إن كان متاحًا الليلة لسفرة مفاجئة إلى الإسكندرية، أخبرني أنه سيرد بعد نصف ساعة. اتصل بعدها بعشر دقائق وقال إنه مستعد إن زدت أجرته مائة جنيه. فحصت محفظتي، تأكدت من وجود كارت الصراف الآلي، وافقت.

في الطريق نمت ثانية، وحلمت أنني في الجامعة. في الصف ظهرت هدى، ألقَيتُ سؤالًا، رفعت يدها وأجابت خطًا. دعوتها إلى المنصة وبدأت في ضربها على مؤخرتها على مرأى من الطلبة، قبل أن تتحول اللحظة للحظة أكثر حميمية. بدأنا في تبادل القبل، طرحتها على طاولة الدرس ونزعت عنها قميصها متبوعًا صدريتها. حين مددت يدي لأنتزع لباسها الداخلي نظرت في عيني وهزّت رأسها في دلال محذِّر، لكنني مددت يدي بعزم وانتزعت لباسها أمام الحضور. ساد الصمت القاعة، وتركزت الأعين في رعب إلى حيث تحركت يدي. التفتُ إلى حيث ينظرون فوجدت عضوًا ذكريًا بالغ الكبر والعنفوان. انتفضت صارخًا لأستيقظ فعليًا في مقعد خلفي من سيارة كيا.

كنا قد اقتربنا من استراحة ماستر على الطريق. أمرت السائق أن يتوقف، أبدى امتعاضًا لأن الوقت كان متأخرًا بالفعل، لكنه امتثل في النهاية. في الاستراحة دخلت الحمام، غسلت وجهي، ثم خرجت للسوبر ماركت لأشتري بضع حاجيات. وجدت السائق واقفًا على إحدى الطاولات القائمة يرتشف قهوة تركية بينما يسحب قطعًا من بسكويت مملح أمامه. اشتريت قهوة تركية كذلك ووقفت بجواره لنشرب القهوة بصمت، بينما تلمع على الطريق أضواء السيارات. كنت أرغب في أن يبادئني الحديث لكنه لم يفعل. شعرت أنني وحيد، وفكرت ماذا سأفعل وحدي في برد الإسكندرية. ظهرت ببالي صورة كئيبة للكورنيش غارقًا في ماء البحر بينما أطل على النوّة من وراء الزجاج في فندق رمسيس. مع آخر قطع البسكويت المملح كنت قد حزمت أمري:

– معلش، إحنا حنرجع عالقاهرة.

مع اجتيازي لبوابات العاصمة كانت رغبتي في العودة إلى موقعي في الفراش بجوار هدى قد تعاظمت بشكل كاسح. وصلنا إلى بنايتي،

ونقدت السائق أجره ناقصًا المائة جنيه التي كان قد طلبها بالإضافة لأجره العادي. فكر في الاعتراض لكنه سرعان ما تراجع؛ كنت زبونًا منتظمًا وكنت أدفع له ما يطلبه عادةً على الرغم من ارتفاع أسعاره مقارنة بمنافسيه، غير أن ذلك لم يمنعه بأي حال عن رمقي بنظرة حادة. لم أهتم. نهبت سلالم العمارة صعودًا ودلفت إلى المنزل في لهفة.

كانت الشقة مظلمة بشكل مريب، والبيت صامت بشكل مزعج. فتحت الأنوار متجهًا إلى غرفة النوم. كان السرير مرتبًا وخاليًا. فكرت في أن أحادث هدى، لكن ذلك كان سيعني استسلامًا مهينًا تضع هي شروطه. انتهزت فرصة غيابها وطلبت وجبة فراخ محمّرة من كنتاكي وجلست أمام التليفزيون لأشاهد فيلمًا دمويًا ونمت بينما آكل.

استيقظت وحدي بعدها بعدة ساعات شاعرًا بحرقان شديد في المعدة. كنت قد انتويت منذ اليوم السابق أن أتغيّب عن الجامعة، لكنني فكرت أنه لا شيء لأفعله ولا أريد أن تعود هدى من الخارج لتجدني في انتظارها.

كان ضوء شمس الضحى يتسرّب من زجاج الحمام المطل على المنور لينير بخار الماء فضاء الحمام. تذكّرت المرة الأولى التي طلبت فيها من هدى أن تأتي لتزورني في البيت. كنت أرغب في مواقعتها بعنف. دخلت لأستحم بحيث أخرج من الحمام مباشرةً لأفتح لها باب الشقة مبتلًا، مدعيًا أنني نسيت موعدنا. تلك كانت خطتي، أن يلهمها الماء المقطر من جسدي ممارسة الجنس. بقيت في الحمام نحو الساعة ونصف الساعة قبل أن أخرج لأجد رسالة منها تعتذر عن المجيء بسبب حدوث أمر طارئ في عملها. أصبت بدور برد وبقيت في الفراش بقية الأسبوع.

خرجت من الحمام إلى غرفة النوم، أخرجت من دولابي حذائي الأوكسفورد الذي تكرهه هدى. كانت فرصة نادرة لارتدائه بعيدًا عن

نظراتها المحذّرة. بينما أحكم ربطه، لاحظت أعلاه لطخة من الطين لا أعلم كيف تسللت إليه. طفقت أبحث عن إسفنجة التنظيف حتى لاحظت أن الوقت تأخر. بصقت على اللطخة وسحبت ملاءة الفراش ومسحتها قبل أن أجري لألحق بباص الجامعة.

في المحاضرة كان فكري منصرفًا بالكامل إلى هدى وأين عساها أن تكون إلى الآن. كنت أصف الاحتمالات في ذهني وأراجعها وألغي بعضها ثم أعيد سردها. خطر لي أنه من المهين حقًا ألا تكون لديّ فكرة حقة عن أين باتت زوجتي ليلتها. أنهيت الفصل مبكرًا متحجّجًا بأن أحدًا في الفصل لم يقرأ ما قررته للقراءة الأسبوع الماضي. تركت الأوراق المصححة للطلبة وخرجت أجرّب الاتصال محمومًا بهدى. تليفونها مغلق. بطاريتي انتهت، والآن تليفوني أنا أيضًا مغلق. كان قلقًا قد بدأ ينتابني. لم يحدث منذ أن تزوجنا أن غابت هدى عني كل تلك الساعات. لعنت أحمد في سري. ما لها الحياة الرتيبة؟ لم نمارس الجنس منذ شهر ونصف، ما البأس في ذلك حقًا؟ أو ربما ما البأس في حياة بائسة طالما كل الحيوات بائسة؟

نظرت في ساعتي. كانت أمامي ساعة أخرى قبل أن يأتي الباص ليعود بي إلى قلب القاهرة. عدت إلى مكتبي ووصّلت هاتفي بالشاحن، وتشاغلت بالاستماع إلى أغنية طويلة لأم كلثوم بينما أحاول الاسترخاء على الكرسي الجلدي. نمت واستيقظتُ وليلى أمامي.

كنت قد نجحت في تفادي ليلى طوال المحاضرة، ولأتفاداها بفاعلية أكبر تركت الأوراق المصحّحة على طاولتي بدلًا من توزيعها. لذلك ندت مني فزعة قصيرة حينما وجدتها أمامي، قبل أن أتمالك نفسي متذكرًا أني أستاذها. اعتدلت في جلستي ومددت يدي لأعبث بأوراق وجدتها أمامي على سطح المكتب اعتباطيًا، متظاهرًا بالجدية.

- خير يا ليلى؟
- أنا آسفة يا دكتور.
- آسفة ليه؟ حصل إيه؟
- لأ قصدي عشان كنت نايم وكدا...
- لا عادي، ماحصلش حاجة.
- أنا أصلي خبّطت وماحدش رد، فقلقت يكون حصلك حاجة.
- خلاص يا ليلى. خير؟
- مافيش، أنا بس...

نظرت في هاتفي. الباص موشك على المغادرة. كان صبري نافدًا بالفعل. أوشكت أن أنفجر في وجهها لكن عوضًا عن ذلك أخذت في جمع حاجياتي من أنحاء المكتب. أما ليلى فظلت تتحدث عن أمر ما يخص ورقتها التي قدمتها الأسبوع الماضي. لم أكن منتبهًا، كنت أهز رأسي بينما أفكر كيف سأعود للمنزل إن فاتني الباص. أخرجتها من الغرفة وأغلقت المكتب بالمفتاح، وطفقت أجري باتجاه مرأب الجامعة تاركًا إياها في الطرقة.

كان الباص يلوح مبتعدًا ولكني استمررت في الجري لعلي ألاقيه بالقرب من البوابة، إلا أن خاطرًا مر ببالي جعلني أشعر بلا جدوى الأمر. إلى أي شيء أعود؟ أين هدى؟ لا أحد ينتظرني، لا عالم في المدينة. وقفت في المرأب، أخرجت هاتفي وشرعت في الاتصال بهدى مرة تلو المرة. هاتفها لا يزال مغلقًا. حادثت أحمد، لا يرد. للحظة عادني شعور الليلة الماضية في الاستراحة. أنا وحيد ككيس فشار ملقى في مدخل سينما.

- أوصّلك لحتة يا دكتور؟

انساب صوت ليلى من خلفي، قبل أن يصعد الصوت المميز لفتح الغالق الأوتوماتيكي لسيارتها، سيارة هاتشباك كورية ضعيفة البنية مليئة بالصدمات والاحتكاكات.

- لا مش مشكلة يا ليلى، حستنى الباص اللي بعده.

- دكتور، إنتَ عارف بعد الساعة تمانية الأتوبيسات بتيجي مرة كل ساعة...

- أيوا عارف. حستنى.

- لِيه حتستنى؟

ظل السؤال معلقًا: لمَ؟ كان الأمر مفاجئًا وغير متوقع. كنت في عشرينياتي حين بدأت التدريس، مما جعلني مهتمًا بإقامة مسافة فاصلة من المراسم والإجراءات بيني وبين الطلبة؛ أتشدد في الدرجات والامتحانات، في مواعيد الحضور، أتفادى تجمعاتهم الطلابية. كنت مهووسًا بتلك الفكرة، أن اختلاطي بالطلبة سيجعلهم طلبة أسوأ لأستاذ سيدركون عن حق كم هو تافه حينما يعرفونه معرفة أفضل. كانت تلك المسافة هي كل شيء، وكان ظهور ليلى فجأة فيها أمرًا مربكًا. بالعودة لسؤال ليلى كانت الردود في رأسي محدودة، وجميعها مليء بالخسائر. كنت أدرك منذ زمن بعيد أن تلك المسافة فعالة بقدر ما هي خفية، يشعر بها الناس ولا يختبرونها. ما إن يشرع أحدهم في اختبارها، فستكون محاولة الدفاع عنها بالتصلب الشديد أو العنف أكثر ما يكشف هشاشتها، لأن حقيقة الأمر أنني أقرب لطلبتي مما يظنون. لكن التهاون في الدفاع عنها في الوقت ذاته سيكون مغريًا لاقتحامها مرات أخرى عديدة. في رأسي حسمت الأمر. المسألة في حالتنا هذه أهون من الدفاع والهجوم. ابتسمت لليلى وتحركت معها باتجاه سيارتها.

فتحت ليلى صندوق السيارة ووضعت فيه حقيبة كتفها، ثم اتجهت

إلى الكرسي الأمامي حيث سأجلس وأمام ناظري انحنت. كانت تمسك بأشياء وتقذف بها دون تفكير للكرسي الخلفي: أبحاث قرأتها في الطريق إلى قاعة الدرس، أعداد من مجلة ميكي، قوائم طعام لمطاعم وجبات سريعة، إعلانات ورقية. أشارت لي بترحاب لكي أحتل مقعدي، فانحنيت أنا الآخر لأرى إن كان هناك شيئًا إضافيًا يجب أن أزيحه قبل أن أجلس، ثم تذكرت أنني غير مهتم حقًا إن التصقت قطعة من العلكة ببنطالي أم لا، فجلست في صمت.

على الطريق أخذت أتأمل في تتابع عمدان النور من التجمع السكني الحديث حيث تقع الجامعة، بينما أخذت ليلى تقلب محطات الراديو باحثة عن شيء ما ليكسر حدة الصمت السائد في السيارة، قبل أن تستسلم تمامًا وتغلق الراديو. كنت أختلس لوجهها النظر وأفكر، هل رأيتها قبلًا؟ كنت أسبقها سنًا بثماني سنوات فيما قدّرت. حينما قبّلت فتاتي الأولى خطفًا في السينما كانت هي في الابتدائية ما زالت.

كنت مرهقًا فأغمضت عيني ثم ذهبت في النوم. في منامي القصير كنت أركب مع سائق تاكسي، وكان العداد ثابتًا منذ ركبت على خمسين جنيهًا. فكرت في الاستنكار ثم قلت لمَ لا؟ خمسون جنيها أجرة معقولة لمسافة نقطعها في العقل الباطن؛ هي نسبية بالضرورة ومن الجيد أن تكون هناك نقطة للبداية. لم أكن أعرف وجهتي لكنني خمنت أنني قد أخبرته في نقطة سابقة. عند قهوة على طريق سقارة أنزلني الرجل، أعطيته ستين جنيهًا وأخبرته أنني لا أحمل فكة، سألني لمَ سأحتاجها، أخبرته «كي أعطيك خمسين جنيهًا كاملة.» هبط الرجل من مقعد القيادة وصفعني، وشرعنا في الشجار بينما قام الرجال من على القهوة ليفضوا بيننا. مع شعوري بالإهانة من الصفعة قررت أن أتمادى في العراك، وكما تقتضي التقاليد في هذا النوع من الصدامات خلعت ثيابي منتويًا الفتك به. لكني ما إن تحررت من بنطالي حتى أحاطني صوت ضحكات هيستيرية

مستمرة. كان السائق ورواد القهوة والمارة ينظرون إلى لباسي الداخلي ويضحكون. نظرْت حيث ينظرون فوجدتني أرتدي لباسًا داخليًا نسائيًا فاضحًا وشفافًا. حاولت الجري باتجاه الهرم لكن سقوطي في بلاعة مفتوحة أنهى الأمر كله.

استيقظت في سيارة ليلى منتفضًا متأملًا ما حولي بحذر كأنما أستكمل الحلم. كانت السيارة متوقفة في مكان مكشوف بأضواء قوية. عائلات تمشي بمرح حاملة حقائب تسوّق، وليلى ليست هنا. تعرفت على مرأب كارفور المعادي. خمنت أن ليلى قررت أنه لا بأس في المرور بكارفور ما دمت أغط في نوم عميق. كنت غاضبًا. في البداية قرّرت أن أنتظرها حتى تأتي، لكن غضبي أوحى لي أن أبحث عنها في المول لأصيح في وجهها منهيًا خطبتي العصماء المنتوية بالبصق على الأرض وسط دهشة الحضور والمغادرة للبحث عن تاكسي.

كان المتجر الضخم ممتلئًا عن آخره بالمتسوقين بمناسبة اقتراب نهاية العام وعيد مولد النبي. أدركت أنه سيكون من الصعب أن أجد ليلى في هذه المعمعة. بينما أبحث ببصري عنها، وجدت أمامي كومة من علب حلوى المولد المخفّضة. فكرت أنني لو اشتريتها فلن يكون بالإمكان أن ألوم ليلى، إلا أن هدى تحب الفولية والسمسمية وقد يخفف من حدة حوارنا المرتقب لو أظهرت قدرًا من الالتفات لمزاجها. وزنت الأمر برأسي ثم أقدمت منتويًا شراء علبة، لكن قبل أن أخطو خطوة اصطدمت بي عربة شراء معدنية يقودها طفل مرح في السابعة من العمر.

- مش تخلي بالك يا بني؟

كان مزاجي سيئًا حقًا، أعني سيئًا إلى الدرجة التي كنت عندها مستعدًا أن أصفع الغلام أو ألقيه في اليم أو أقتله أو أطرحه أرضًا، لكنني كنت راضيًا بترك الأمر مكتفيًا بجملتي الاعتراضية والمضي إلى سبيلي. لولا

أن ظهر لي الأب من وراء كومة من علب البسكويت المخفضة، ومن وراءه ظهرت زوجته وبناته الاثنتان. ملتح ضخم الجثة ومنقبة وفتاتان توأمتان في العاشرة يرتديان الحجاب. كان المشهد كاريكاتوريا لا يربطه رابط بالواقع سوى رغبة الرجل الواضحة في إظهار تفوق ما أمام أسرته الصغيرة.

- فيه إيه يا أستاذ؟

- ابنك دا؟

- خير؟

- مافيش، عدى على رجلي بالتروللي.

- يا عم! دا أنا افتكرته قتلك ولّا حاجة...

كنت منزعجًا بحق. أكره هذا النوع من الآباء؛ لا اعتذار من أي نوع، لا ندم، لا شيء. بإمكان ابن أحدهم أن يضغط بالخطأ على زر لإطلاق نصف ترسانة روسيا من الأسلحة النووية بينما ينظر لك الأب ضاحكًا «عيّل بقى!» في حين يحترق العالم فلا ينجو منه لا أنا ولا هو ولا ابنه. في إحدى المرات دعاني صديق إلى عشاء منزلي صغير، ودعا زوجين هنديين زاملاه في عمله لمدة عام وكانا على وشك مغادرة القاهرة عائدين إلى مومباي. كان بصحبة الزوجين ابنهما، طفل - على ما ادعيا - في السادسة من العمر. لم يترك الطفل رأسًا في الغرفة إلا ومر عليها شدًا وعضًا بينما تردد الأم مبتسمة أن هذا هو ديدن الأطفال، في حين يفخر الأب بأن ريبو من أكثر أبناء فصله تميزًا في الموسيقى وأنه سيشتري له آلة موسيقية حينما يعودون للهند. في سري دعوت الله أن يشتري بيانو، وأن ينكسر بينما يرفعونه من البلكونة فوق رأسه هو وريبو الحبيب. مضت السهرة بشكل أو بآخر حتى وصلنا إلى العشاء، وبينما نحن مندمجون والحديث على المائدة، إذا بنا نسمع صوت تكسير عاليًا.

مددت بصري باتجاه كرسي الغلام فوجدته خاليًا. نهضت سابقًا الجميع بينما لحقتني الأم والمضيفان وبقي الأب واقفًا بجوار الطاولة. كان ريبو بخير، كانت شاشة جهاز الكمبيوتر المنزلي الخاص بصديقي أبعد ما يكون عن ذلك. أما الأب فكان يضحك في بلاهة من الصالة، مخبرًا الجميع ألا يقلقوا لأن جميع الأطفال في هذه السن يفعلون مثلما يفعل ريبو. في تلك اللحظة كان لحم وجهي يتساقط حرجًا. تمنيت أمسية طيبة للجميع باستثناء ريبو ووالديه ورحلت.

كانت لهجة الأب الملتحي تفيض بتلك اللامبالاة البغيضة الممزوجة باستقواء غير مبرر. لم أرَ وجه الأم فلم أعرف كيف كانت تشعر تجاه الموقف، لكنني وجدت صعوبة جمّة في التجاوز عن الأمر كما أفعل عادة.

- وهو لازم يقتلني عشان حضرتك تاخد بالك إنه بيلعب بحاجة مش المفروض يلعب بيها وداير يخبّط في الناس؟

- حعمله إيه يعني، حشنقه؟

- لا ما تشنقوش، اعتذر!

- بقولك إيه يا عم، إخفى الساعة دي عشان ما أعملهاش معاك!

كان الصوت قد علا واجتذب قدرًا من المتابعين حولنا. أما أنا فلم أكن أتوقع أن تصعيدي سيذهب بالأمر إلى هذه الدرجة. لقد تمت إهانتي علنًا ومن اللحظة بدا الاختيار واضحًا: في الرد التالي سيدفعني، وإما سأستطيع أن أستجمع نفسي وألكمه في أنفه، أو سيسبقني إلى ذلك وسينتهي الأمر بأحدنا على الأرض الباردة للمحل. في الحالتين سيطول الأمر وسيكون مريرًا على الأغلب.

- أكرم...

كان الصوت لليلى. كنت قد نسيت في خضم الشجار وعلب حلوى مولد النبي أنني كنت قد دخلت في الأصل باحثًا عنها. استطردَت:

- أنا خلصت ورائد كلمني قال لي إنه قاعد في القسم لغاية متأخر النهاردا، بس هيبعتلنا بوكس وجوز عساكر يشيلوا معانا الحاجة.

كانت لقطة جيدة بلا شك. تماهيت مع المسرحية ورددت على ليلى في غضب مصطنع:

- كام مرة قلت لرائد ما يعملش الحاجات دي؟ دا استغلال للسلطة! كلميه قوليله ما يبعتش حد. أو استني أنا حكلمه بعد ما أخلص مع الأستاذ هنا.

التفت إلى الأب الملتحي:

- إحنا تمام يا بشمهندس؟

كان الرجل ما زال واقفًا في بلاهة يفكر على الأغلب في مخرج كريم من هذا الموقف. قبل أن يستجمع كلماته للرد كانت زوجته قد صفعت الغلام:

- مش قلتلك مليون مرة قبل كدا ما تلعبش بالزفتة العربية دي؟ اتأسّف يالّا!

لم يعتذر الغلام ولم يبكِ. في المقابل رمقني بنظرة كراهية عميقة قابلتها بخجل شديد. أخذت الزوجة يد زوجها وجذبته بينما تقول:

- محصلش حاجة يا أستاذ، هو آسف.

- ولا يهمك يا مدام، حصل خير.

وضعت يدي على كتف ليلى وتمشينا مغادرين المشهد قبل أن يكتشف أحد حقيقة تمثيليتنا الصغيرة. أمسكت ليلى بيدي وجذبتني باتجاه قسم المفروشات المنزلية.

- بتعملي النمرة دي كتير؟

- لما بحس إنها حتنفع.

- وحسّيتِ إنها حتنفع عشان الراجل سلفي وحيخاف، صح؟

- وعشان مراته وعياله، قلت حيقلق جامد. بس إنتَ لعبتها حلو برضه، عجبتني لقطة استغلال السلطة دي.

- أنا كنت بمثّل وأنا في الكلية.

- بجد؟ ماتخيلتكش كدا خالص.

مشينا ناحية الكاشير حيث كانت قد تركت أشياءها. تركت بقشيشًا سخيًا لعامل التعبئة في حين دفعت أنا ثمن صفيحة كولا بالفانيليا التقطتها في الطريق، ثم اتجهنا ناحية مرأب السيارات.

- أنا آسفة.

- على إيه؟

- عشان عطّلتك، كان لازم أقف أجيب ستاند لستارة الحمام وماحبيتش أصحيك أستأذنك.

- كويس إني ما اتضربتش، كنت حتضايق جدًا لو كنت اتضربت عشان ستاند ستارة حمام.

ضحكَت، ضحكة من تلك التي يضحكها الناس وهم مدركون لمدى سخف ما يضحكهم لكنهم لا يبالون إن كان الأمر يضحكهم حقًا، ضحكة بلهاء تمامًا وساحرة. فكرت أن هذه هي المرة الأولى التي أُضحِك فيها امرأة منذ زمن بعيد.

كانت هدى قد توقفت عن الضحك على نكاتي منذ وقت طويل، أو ربما لم تضحك أبدًا على نكاتي. في ذهني صورة غائمة لهدى تضحك يوم زواجنا. حتمًا ضحكت يومها. أعني، من ذا الذي لا يضحك يوم عرسه؟ هدى ربما.

- كنت بتتخيّليني إزاي بقى؟

- نعم؟

- مش بتقولي ما تخيلتينيش كدا خالص؟ تخيلتيني إزاي؟

- أصل إنتَ مش لطيف قوي. يعني، أغلب الدكاترة مش لطاف، بس فيه حاجة في جو الرسميات اللي أنت عامله دا مش طبيعية، كإنك بتبني صورة معينة بحرص وخايف تغلط.

- إزاي يعني؟

- يعني أغلب الطلبة بيقولوا عليك دكتور سخيف. لو اتكلمت معاهم شوية حيقولوا إنك مدرس كويس، بس برضه حيرجعوا يقولوا دمه تقيل ورخم.

- الله يخليكِ.

- مش قصدي، بس الفكرة إنهم مصدقين الصورة دي، وأنا بس حاسة إن مش دي كل حاجة.

- أمّال إيه تاني؟

- مش عارفة، بس ماكنتش متوقعة فرقة تمثيل برضه.

ابتسمت. خطر لي أنني أريد أن أتحدث عن حياتي، لكن جرس هاتف ليلى استوقفني. استنتجت أنها مكالمة عمل. كانت تعمل على ما يبدو كمترجمة حرة؛ كان التباسًا حول قيمة أجرها في مشروع جماعي. كنت أراقب ردودها الصلبة ومنطقها في معركتها الأرضية العنيفة وأجد في نفسي فائضًا من الفضول تجاهها. ماذا كنت أفعل حينما كنت في سنها، أربعة وعشرين عامًا؟ خمسة وعشرين؟ كنت ما زلت أعيش في بيت أهلي، أحب فتاة بلا أمل، أتطوع كباحث في مشاريع لأتحصّل خبرة معينة قبل أن أمل وأرحل قبل نهاية المشروع. أنظر إلى حياتي الآن وأفكر أن لا بأس بها. لو مت الآن فلن يكون لديّ ندم كبير. لا ندم كبير ولا متعة عظيمة.

كان الشجار يتصاعد؛ ليلى تردد أن ذلك لم يكن الاتفاق، وأنها لم تسلم عملها ناقصًا لتحصل على أجرها ناقصًا. كانت تتشاجر وتقود باتجاه العجوزة، بعيدًا عن منزلي في المنيرة. فكرت أن ألفت نظرها للأمر، غير أن انفعالها منعني من مقاطعتها. لا بأس، تاكسي لن يضر.

وصلنا أخيرًا. دلفت ليلى بجوار نعمة، ثم يمينًا مرة أخرى بمحاذاة شارع شاهين وتوقفت. فكرت أن الأمر ليس سيئًا كما يبدو، سأستمتع على الأقل في طريق عودتي بساندوتش من الشاورما الرديئة من نعمة. نزلت من السيارة أخيرًا بينما اتجهت ليلى ومعها الهاتف إلى مدخل العمارة لتبحث عن البواب على ما بدا. عادت وهي تصرخ في الهاتف قبل أن تحاول حمل الأكياس بينما تمسك بالموبايل. خمّنت أنها لم تجد البواب فحملت عنها أغلب الأكياس وصعدت معها.

كانت شقتها في الدور الرابع. حالما وصلنا كنت قد شعرت برغبة عارمة في دخول الحمام من أثر صفيحة الصودا التي جرعتها. تركت حاجياتها بجوار الباب، سألتها عن الحمام وانطلقت إليه مباشرةً.

كان الحمام مليئًا بصور متنوعة لعمر الشريف، إحداهن كانت صورته الشهيرة لمجلة بلاي بوي، حيث يقف مرتديًا توكسيدو وسط جماعة من النساء عاريات الصدر. كانت في الصورة ألفة مستفزة، أعني أن أحدهم في الصورة –لا عمر ولا النساء– يبدو واعيًا بحقيقة الأمر، أنهن نسوة نصف عاريات في صحبة رجل وسيم. هذه «العادية» كانت تدين خفية شعور المشاهد بالاستثارة وتصمه بالحيوانية كأنما الأمر غير جنسي بالمرة، فقط نسوة نصف عاريات بصحبة رجل وسيم، لا شيء غير عادي.

أطلت النظر في الصورة قبل أن يأتيني صوت صراخ مفاجئ من خارج الحمام. بحثت عن مفتاح الطراد للحظة قبل أن أجده. ضغطت عليه مرتين، لا يعمل. نظرت بجوار قاعدة الحمام فوجدت دلوًا مليئًا

بالمياه بدا أنه مخصص لحل محل الطراد الخرب. قبل أن أخرج وقعت عيناي على البانيو الذي لم ألحظه في دخولي وستار الحمام المكسور. يبدو أنها كانت ليلة ملتهبة من الجنس العنيف. أتساءل، من ذا الذي يحتمل ممارسة الجنس بينما تحيط به صور عمر الشريف؟ ليس أقل من مارلون براندو على الأغلب.

خرجت إلى الصالة. كانت ليلى واقفة ترتعش وبجوارها تليفونها ملقى على الأرض. كنت واقفًا غير فاهم ما يجري. اقتربت منها منحنيًا على الأرض لألتقطه. كان يعمل باستثناء شرخ صغير في زاوية الشاشة. ناولتها إياه مبتسمًا:

- المرة الجاية حاولي ترميه أحسن.

أطلقت زفرة قصيرة من صدرها، ظننتها مقدمة لضحكة، غير أنها اندفعت في البكاء. ربتت على كتفها مرددًا:

- معلش...

زاد نحيبها، احتضنتها، دون سابق ترتيب. شعرت ببلل طفيف يتسرب إلى صدري إثر بكائها، وكان الوهن يجتاحني. كنت أفكر في أحداث الأيام الثلاثة الأخيرة وحياتي من ورائها. أنا بائس، بائس للغاية. وحياتي مدموغة بضياع لا يشغلني عنه سوى الغفلة، والإيقاع اليومي للجامعة، ومهام المنزل الصغيرة، ونزهات الليل مع أحمد. وعالمي هش، كل ما بنيت- بيتي، زواجي، منصبي في الجامعة- كل تلك الأمور لن تصمد أمام شجار عشوائي في مول، أو لحظة أسى صادقة في صالة منزل لم أدخله قبلًا في العجوزة. بدأت الدموع تتساقط من عيني حارة، قبل أن أشرع في نحيب مفاجئ. على ما يبدو شعرت ليلى بما يحدث وابتعدت بجسدها. سمعت صوت بكاءها يخف قليلًا، وقفت تنظر إليّ وهي مشدوهة. ثم عادت لاحتضاني مهدهدة إيايّ:

- أنا آسفة خلاص، ماحصلش حاجة... أنا آسفة، ما تزعلش.

كانت تربت على كتفي بحرارة بينما أبكي محمومًا. كنت أشعر بحيرتي في اللحظة السابقة تنتقل من جسدي إلى جسدها فأراها عاجزة عما يهدئ من روعي وقد كنت قبل ثوان أفكر في الشيء ذاته. انكمشت في نفسي وجلست على الأرض، وبين برودة البلاط وحرارة أنفاسها على وجهي بدأت أشعر أنني بخير. هدأت قليلًا. بدأت ليلى في تقبيل وجهي بحرارة أمومية واحتضنتني ثانية بحرص لئلا يظل جزء في بدني غير محتضن.

- مافيش حاجة خلاص، مافيش حاجة...

هدأت، هدأت تمامًا. استقر رأسي في صدر ليلى لوهلة وتوقفت عن البكاء. ابتعدت برأسي عن صدرها بعد دقائق لأجد أثر وجهي على قميصها القطني. ضحكت بينما أحاول تمالك أنفي السائلة. نظرت إلى وجه ليلى. كان الكحل سائلًا على وجهها كذلك لكنها كانت تضحك هي الأخرى. قبلتني مرة أخرى بجوار عيني.

- أنا حقوم أغيّر.

نهضت ليلى باتجاه غرفة نومها في نهاية الممر، تاركةً إياي على الأرض. فتحت نور الغرفة وتركت الباب مفتوحًا وغابت بداخلها. كنت أنظر باتجاه باب الغرفة المنير غير فاهم تمامًا ما مررت به في اللحظة الفائتة، غير عالم ما ينبغي عليّ فعله في هذه اللحظة بعينها. كانت هشاشة ما تجتاح نفسي ويفيض فيها الاحتياج، الاحتياج إلى رفقة ما، لحظة حقيقة، قصة ربما. كنت أفكر، أي بأس؟ زواجي ينهار، وفي انهياره سيجتاح معه حياتي كما أعرفها. كنت أتوق لليلى، حقًا وصدقًا، كنت أتوق لذلك العطف الذي اجتاحني منذ قليل. كانت الحاجة إلى النوم تتملكني، وبدا لي سرير ليلى أقرب بكثير من فراشي بالمنيرة؛ بضع

خطوات أخطوها تجاهها وسأنام هادئًا على صدر مرحب. نهضت من جلستي، خطوت باتجاه غرفة ليلى. في الطريق، وقفت أمام الحمام لأطفئ النور، ولكن قبل أن يظلم الحمام وقعت عيناي مرة أخرى على صورة عمر الشريف بجوار المرآة. فتحت النور مرة أخرى وتأملتها. تأملتها بعمق، تأملتها كأنما أراها للمرة الأولى. أطفأت النور ثانية، استدرت على عقبي ورحلت في هدوء.

على السلم حاولت محادثة هدى مرتين. هاتفها مفتوح الآن لكنها لا ترد. كنت أهدأ وأكثر تقبلًا لما سيحدث. توقفت عند نعمة واشتريت ساندوتشين من الشاورمة. سيئين بلا شك. كيف قضيت سنوات من حياتي ألتهم ساندوتشات شاورمة رديئة دون شكوى؟ لا أعرف، وعلى الأغلب لا رد.

على طول الطريق من العجوزة إلى المنيرة ظللت أفكر في مغزى ما مررت به خلال اليومين السابقين. هل المغزى مناط الحياة أصلًا؟ هل هناك درس لأتعلمه؟ كنت أنظر إلى صفحة النيل الهادئة وأدس يديّ في إبطي لعلي أنسى البرد، حتى استسلمت تمامًا لأنه لا فائدة من قطع المسافة مشيًا إلى المنيرة لأنني على الأغلب لن أجد إجابات عن أسئلتي خلال تلك التمشية. رن هاتفي، فكرت أنها هدى، أخرجت الهاتف في لهفة. كان أحمد.

- إنتَ فين يا عرص؟
- منى طلبت الطلاق.
- أحا! إمتى؟ حصل إيه؟
- حوار طويل.
- لخّص!
- بتقول لي فيه حد تاني. واحد معاها في كلاس اليوجا.

- بتشتغللك.

- ورّتني صورته.

لم أعرف بما أرد. من ناحية كان طلبها الطلاق مسألة وقت، لكن رجلًا آخر؟ صف اليوجا؟ الأمر يليق بمسلسل أمريكي لا بأحمد بدر ومنى الطيب. كنت أعلم أن الأمر جارح بلا شك، لذلك حرصت على أن أدفع بكل طاقتي للتعاطف في كلماتي.

- طب إنتَ فين دلوقتِ؟ تحب آجيلك؟

- لا أنا تمام، حكلمك بعدين.

- طيب.

فكرت في محادثة منى لكني خمنت أن الأمر لا معنى له. لم نتحدث منذ سنوات، ولا جدوى من الحديث الآن. كنت قد أشرفت على الوصول إلى البيت. توقّفت لحظات حينما تبيّنت مدخل شارعي، ثم واصلت المشي في جلد. حينما بلغت بناية سكني وجدت سيارة هدى في الجراج. كان الأمر غير متوقع، كنت قد هيّأت نفسي لليلة أخرى من التهام صندوق عشاء كنتاكي والنوم بكامل ملابسي أمام التليفزيون. جلست على الدرج ثواني محاولًا التفكير في ردود الأفعال الأفضل حين ألقاها، ثم ألقيت بالأمر كله وراء ظهري ودلفت إلى المنزل.

كانت هدى جالسة إلى طاولة الطعام تدخن. لأول مرة منذ أعوام أراها تمسك بسيجارة، عويناتها أمامها ووجهها مرهق. بدت جميلة كأول مرة التقينا. لاحظت بقعة من الكاتشب على ثيابها. كم كان الأمر مضحكًا. بدت البقعة كأنها ثغرة في جلال الموقف، ثغرة قد أستطيع النفاذ منها إلى الناحية الأخرى من عالمنا، عالمي وهدى، حيث لم أخط يومًا.

- كنت فين؟

سألتني بالإنجليزية محاولة التمسك بما يحفظ لها إمكانية الاختباء

وراء أقنعة الصرامة المعهودة في مثل هذه المواقف. كنت أعلم أنني لن أنجر هذه المرة لما تريد، إلى حيث يريحها، إلى حيث تمارس قدرة غير عادية في ضبط مشكلاتنا دون أن تتورط للحظة في معالجتها حقًا. كنت قد نويت أن أهدم ما تتوقعه هدى مني، من موقفنا المرتقب هذا، كسبيل وحيد لاستمرار علاقتنا.

- في كاتشب على بلوزتك.

نظرت هدى إلى البلوزة، وندت منها سبّة قصيرة. أمسكت بمنديل وحاولت إزاحة البقعة بانهماك. اتجهت ناحيتها، رفعت رأسها ولحظت دموعها الجافة. كانت هدى تبكي، لأول مرة ربما؟ ربما منذ زفافنا. أعني، من ذا الذي لا يبكي في يوم زفافه؟ هدى ربما. لثمت فاهها، لم ترد قبلتي. كررتها مرتين قبل أن أشعر بارتجافة خفيفة في شفتيها. عضضت شفتها السفلية بعنف، فردتها بعنف أكبر. سادت الحمى المكان. أنهضتها وأجلستها على طاولة السفرة، خلعت عنها حذاءها الجلدي وبنطالها الجينز. سحبتها من ذراعها لتستقيم جالسة على الطاولة، دسّت لسانها في أذني محركة إياه في حركة دائرية، انفلت مني تأوه قصير. أنزلتها من على الطاولة ودفعتها لتنحني عليها، ففككت حزامي وتواقعنا، بعنف لم أعهده في نفسي، بغضبٍ فاقع الحمرة. واقعتها كأنما هي المرة الأولى والأخيرة في حياتي.

حينما انتهيت كنت أشعر بقلبي يكاد يقفز من فمي، ذلك الشعور المحبب عند انتهاء مواقعة عنيفة. كنت أقاوم ألا أسقط على الأرض حفاظًا على كبريائي الذكوري. اعتدلت، رفعت بنطالي مرة أخرى، وأغلقته وأغلقت عليه الحزام كأنما أنا متجه للخروج. تركت هدى على طاولة السفرة تلملم حالها ودخلت إلى غرفة النوم. كنت أعلم أن الغد سيكون صعبًا، لكن في تلك اللحظة بعينها لم أهتم.

دخلت الفراش بكامل ملابسي وحذائي. سمعت خطو هدى باتجاه الغرفة ورجوت الله في سري ألا تبدأ جدلًا آخر، حتى سمعتها تخلع ملابسها. الإكسسوار، سحبة النسيج على جسدها، تكة غالق صديريتها. وقفت أمام المرآة عارية تمسح وجهها بحرص بمنظف البشرة، ثم اندست إلى جواري في السرير. دفعت جسدها ملتصقة بي ومالت على أذني:

- لو عملت كدا تاني، حنيكك.

قبّلتني، وذهبنا في النوم.

لا أحد يرثي لقطط المدينة

حالما اتخذت مقعدي على كرسي المطبخ قفزت إلى حجري.

- يا وسخة! دي عمرها ما عملت معايا كدا!

كانت مستكة قطة جبلية، وجدتها أسماء قبل أشهر خلال تمشية على أحد الشواطئ في سيناء. كان بعض الأطفال من بدو المنطقة يتقاذفون بينهم كتلة صغيرة ظنت أسماء في البداية أنها كرة مشعرة قبل أن تسمع صوتًا هُيئ لها أنه مواء. اقتربت من الأطفال لتكتشف حقيقة أنهم يلعبون بقطة حديثة الولادة. صرخت أسماء فيهم ليجري الأطفال أمامها تاركين القطة على الرمل في حالة بالغة من الإعياء. عادت بها أسماء إلى القاهرة في اليوم التالي، أودعتها عيادة خاصة، واستلمتها بعدها بأيام. على مدار أسابيع أغرقت أسماء الفيسبوك بصور مختلفة لمستكة محاولة أن تجد لها عائلًا، لكن بقيت طباع مستكة عائقًا أمامها. ستة أشهر قضتها مستكة في بيت أسماء؛ تختبئ أغلب النهارات في زوايا خفية من الشقة، تخمش يد أسماء حين تحاول ملاطفتها، تخشى الضيوف، تأكل حينما تترك لها أسماء المنزل خاليًا، تفضل البقاء وحيدة ولا تقترب من أسماء إلا حينما

تشعل المدفأة. قفزت مستكة لتستقر على حجري في استكانة، داعبت رأسها في حين نظرت أسماء في عجب.

- يمكن المفروض تاخدها يا حازم، يمكن هي دي اللي حتريحك في حياتك.

لم أرتح لما رمت إليه أسماء. وضعت يدي على ظهر مستكة لأربت عليها، ارتاحت على حجري لحظة قبل أن تخمش يدي بسرعة خاطفة وهي تنظر باتجاهي ببراءة. نهضت منزعجًا فسقطت من على حجري قبل أن تتجه مسرعة إلى الغرف الداخلية، بينما أسماء تضحك:

- الظاهر ولا حتى القطط عايزاك!

في اللحظة ذاتها رن جرس الباب. ابتعدت أسماء عن رخامة المطبخ مشيرة لي أن أبقى في مكاني وذهبت لتفتح. بلغني صوت بوّاب العمارة يطلب أموالًا لإصلاح الأسانسير. أخبرته أسماء أنها ستتحدث إلى صاحب البيت بخصوص المسألة وأغلقت الباب في توتر.

- هو شافك وإنتَ طالع؟

- لأ، ماشافنيش.

- أمال فيه إيه؟ ما أنا لسه صاحب البيت مكلمني امبارح. فيه حاجة غريبة...

لم أهتم كثيرًا لما قالته. كانت أسماء قد تركت بيت أهلها بعد شجار دام لأعوام حول الأمر، جربت فيه الإقناع مرات، والعيش مع جدتها مرات أخرى. كان الأمر أشبه برحلة هروب تقليدية من سجن، اختبار دائم لحدود قدرة السجان، ثم الشروع في تنفيذ خطة هروب طويلة الأمد يحتمل خلالها المرء كل شيء من ألم السجن نفسه للخوف من انكشاف نيّته. لكن سنوات العيش مع أب اعتاد فرض سلطة خانقة بطول المنزل، وأم لا تكاد تستطيع التنفس خارج هذه الأجواء المسمومة أكسباها شكًا

فطريًا تجاه العالم. لذلك اعتدت أن أهمل أغلب شكوكها من عينة «هو الجارسون بصلي كدا ليه؟»، أو «هي صاحبتك بتكرهني؟»، أو أيًا كان.

اتجهتُ إلى الثلاجة، فتحتها وأخذتُ تفاحة خضراء. غسلتها ثم عدت إلى الكرسي وقضمتها بينما أسماء تصيخ السمع باتجاه المنور قبل أن تلتفت إليّ:

- حتسد نفسك! أمال أنا بعمل البانكيكس دي لمين؟

لم أبالِ. تصاعد بداخلي الضيق من تعليق أسماء الأول بخصوص القطة. تركت لها التفاحة على رخامة المطبخ.

- أنا حطلع البلكونة أشرب سيجارة.

في البلكونة وقفت أتأمل قصر عابدين. لطالما أثار فضولي. تخيلتني مرات تاجر أقمشة من الأزهر وُلد في أوائل القرن التاسع عشر، لا يعلم من الدنيا غير حواري السيدة وخانات القاهرة القديمة والقلعة والرحلة من مقام الحسين لمقام السيدة فاطمة. أي غرابةٍ تلك، أي غربة، في أن تجد قصر عابدين بطرازه النيوكلاسيكي ماثلا أمامك، قاطعا عليك طريقك الذي اعتدته لسنوات، منذ وعيت العالم، وأنت أمامه في قلب مدينتك، في قلب كل ما ألفته يومًا، ضئيل ضآلة ممضة؟ لا بأس. الأبهة تدعوني للتفكير في العدم؛ كأننا نحاول إبعاد الخاطرة بمزيد من الجهد ودون جدوى. انتهى إسماعيل منفيًا مدينًا، وانتهت علاقتي بآية إلى أمر شبيه.

- أنا آسفة.

صعد صوت أسماء من ورائي. تقدّمت لتقف بجواري مستندة على سور البلكونة. ابتسمتُ في وجهها، مدت يدها إلى وجهي وربتت على خدّي في رفق. كنا نتبادل هذا الدور بانتظام على مدى عشر سنوات هي عمر صداقتنا؛ كنا نتبادل النحيب في أيام فلا يكاد يسمع أحدنا الآخر.

غير أن تلك الطمأنينة -طمأنينة أننا لسنا وحيدين- كانت تغلف قلبينا بما يكفي من الدفء.

أخذتني من يدي وعادت بي إلى المطبخ. كان عجين البانكيكس قد انتهى. بدأت تحادثني عن أمور عدة كأنما تهرب من ذكر سيرة معينة. لم أمانع؛ لم أرغب في سؤالها مباشرة. كنت أعرف أنه لا خير سيأتي من سؤالها عما تخفي بشكل مباشر. لكن مللًا ما انتابني حينما ذكرت حفلة عيد ميلاد باسم دون أن تذكر أنها قابلت آية.

- أسماء، إنتِ ليه بتعملي كدا؟

- بعمل إيه؟

- بتلاوعيني! ما أنا عارف كل حاجة، إيه لازمته بقى اللف والدوران؟

- يعني أنت عرفت إن آية صاحبت؟

يا لحمقي، ليتني تمسّكت بما أعرف. لم أكن أعلم بالطبع، أنّى لي أن أعلم. علاقة جديدة يا آية؟ لم يمر شهر ونصف على انفصالنا العاصف، أهكذا تجري الأمور؟ كانت قد حاولت مكالمتى منذ أسبوعين، كنت متلهفًا للرد، لكن أمرًا ما أمرني ألا أرد من المرة الأولى. إلا أنه لم تكن هناك مرة ثانية. قضيت أسبوعًا أقاوم رغبتي في مكالمتها لأعلم ماذا أرادت. هل تريد أن تردني؟ هل اهتدى قلبها لكوني رجلها الوحيد؟ بعد انقضاء أسبوع فكرت أنها على الأغلب كانت تعاني من انسداد في حوض المطبخ وترغب في رقم هاتف السباك قبل أن تكتشف أنه معها. الآن أعلم أنها أرادت من باب اللياقة أن تخبرني بالأمر، ولمّا لم أرد ولم أعد لمكالمتها سقط عنها إلزام إخباري بالأمر.

- صاحبِت؟

- آه. جت الحفلة مع ولد كدا، معرفوش.

- هو مين؟

- مش عارفة والله. عارف هدير؟

- السباعي؟

- آه.

- لا معرفهاش. يعني أعرفها من بعيد كدا.

- كان صاحبها هو.

- معرفوش.

كان الأمر مثيرًا للكآبة بشكل من الأشكال. كانت علاقتي بآية قد ماتت، انخفضت مؤشراتها الحيوية، وبقيت على مدار شهور جثة باردة في غرفة النوم، لا نستطيع الحديث عنها بالضبط ولا نستطيع تجاهلها. كنت أفكر ربما انجلى الأمر بعد فترة؛ ربما لو صبرت قليلًا -أسبوعًا، أسبوعين، شهرًا، عشر سنوات- ربما أجد ما يكافئ مرارة صبري حلاوة. ولكن آية كانت أسرع حسمًا. ترددَت لأشهر خوفًا مما ستلاقيه بعد نهاية العلاقة، لكنها حزمت أمرها: لا طرق بعد لنقطعها معًا، لأننا لا نرغب في زيارة ذات الأماكن. بقدر ألمي بقدر ما احترمت حسمها. كانت تعلم ما تريد، ولم أكن أنا ما تريده.

- شكله كان عامل إزاي؟

- شبهك شوية، رفيع وطويل.

كانت الأسئلة تنهال على ذهني. كيف بدت معه؟ هل لمسته أم خشيت أن يبلغني الأمر؟ كيف هو؟ أكثر وسامة مني؟ أخف دمًا؟ منظوم أم مبعثر؟ أفقت من خواطري مقررًا أنه لا مزيد من الكلام في الأمر. كانت الفطائر قد انتهت، ساعدت أسماء في إخراج الأطباق من الخزانة وحملتها مع الطاسة وخرجت.

جلسنا إلى المائدة. لم يكن الأمر كما تخيّلته. كانت أسماء قد وعت أن فترة مرت دون أن تحادثني بسبب انشغالها بامتحانات الدكتوراه، فهاتفتني لتدعوني إلى الإفطار في يوم إجازتها. كنت أظن أننا سنتصالح، وأنها ستغرقني في المحبة وستستمع إلى ما لديّ لأخبره. لا شيء من ذلك. كانت تداوم النظر للساعة لتتأكد من أن وقت المذاكرة لم يحن بعد، بينما استغرقني التفكير في آية.

بينما نحن جلوس لنأكل، سمعنا صوت صلصلة مفتاح الشقة. التفتت أسماء في توتر باتجاه الباب لتجد عالية، شريكتها في السكن، تدلف إلى البيت، يتبعها حسن، ممثل صاعد عرفته صغيرًا قبل أن يتدرج في الصناعة من فرق المسرح المستقل لبطولة فيلم. توقفت عالية للحظة عابرة وبدا على وجهها الإحباط قبل أن تسارع إلى خلع حذائها على الباب.

- إنتِ هنا يا سِمسِم؟ أنا فاكراكِ في الجامعة النهاردا!

- لا مانزلتش يا حبيبتي. تعالوا كُلوا معانا.

- لازم نقعد نشتغل، شوية كدا ونطلع...

- لأ، أنا حقعد آكل.

تدخّل حسن في الحوار معترضًا ثم مال على أسماء واحتضنها. رمقته عالية بنظرة لم يغِب عني معناها، في حين افترش الأرض بجوارنا ليأكل. خرجت مستكة في هذه اللحظة من غرفة أسماء لتنظر إلى الجمع، قبل أن تمشي بهدوء تجاهي لتقفز على حجري ختامًا. نظرت عالية في عجب.

- إيه دا يا سِمسِم، شايفة الوسخة؟

التفتت أسماء إليّ:

- مش كنت لسة بقول لَك؟

- دي مابتطيقش حد! إنتَ عملت كدا إزاي؟

كنت مشغولًا بالأكل في هذه اللحظة فلم أجب، غير أن الأمر على ما يبدو نشر جوًا من الارتياح في الشقة، بدأه حسن بالحديث عن قطة زوجته التي حاول الطبيب البيطري سرقتها مخبرًا إياهم أنها هربت، قبل أن تحكي عالية عن قطتها التي تركتها وراءها في بيت أمها. كانت شمس العصر تنسال من بين الستائر بادية القدم لتغمر وجهي، بينما يتصاعد دخان الحشيش الدائر علينا بعدما أنهينا الأكل. تبخر كل هذا فجأة حينما تلقت أسماء مكالمة من أحمد، أخيها العامل بمكتب النيويورك تايمز بالقاهرة. كلمها مرة فأغلقت الهاتف، قبل أن يحادثها على هاتف عالية. أخذت فاطمة الهاتف للبلكونة قبل أن تعود به بعدها بدقائق.

- شكل فيه حملة النهاردا كمان.

بدا القلق على عالية بينما استمر حسن في فرْك الحشيش غير عابئ. كان الأمر قد بدأ منذ يومين بتغريدة تحذر مستأجري شقق وسط البلد من حملة يقوم بها البوليس بالتزامن مع اقتراب ذكرى احتجاج الثمانية عشر يومًا. لم يعر أحد الأمر اهتمامًا كون صاحب الحساب مجهولًا، لكن الحملة حدثت، وتصاعدت على مدى يومين، حيث ذكر مساعد وزير الداخلية بفخر في لقاء تليفزيوني أنهم اقتحموا ما يقرب من خمسة آلاف شقة مستأجرة في محيط وسط البلد. الروتين معروف: يقلب المخبرون الغرفة بغرض الترويع، وقد يجدون حرزًا مصادفةً (مطبوعات ثورية قديمة أو كتبًا عن حقوق الإنسان مثلًا)، ثم ينتهون إلى فقرة الفيسبوك والإيميل. يبدأ الضابط بتصفح حسابك، فإن وجد فيه ما يدل على معارضتك لنظام الحكم الحالي، ممم... لن يكون الأمر جيدًا. أحد النشطاء كتب ناصحًا أن يحتفظ الجميع بقطعة من الحشيش ليقوم بتسليمها للضابط في البداية حتى يتوانى عن التفتيش في الفيسبوك ويكتفي بقضية تعاطٍ خفيفة.

- اهدي يا أسماء، إحنا بعيد عن القصر العيني.

- أحمد لسه قافل معايا بيقول لي إنهم وصلتهم أخبار من مصدر جوا الداخلية.

- طب استني بس شوية والأمور حتبان.

التفتت أسماء تجاه حسن لتجده ما زال مستمرًا في فرك الحشيش. نظرت إليه في عصبية فبادل نظرتها بنظرة هازئة بدا أنها هدأت من روعها.

- كويس إن معاك حشيش، جايز نحتاجه.

نفض حسن يده وجذب أسماء لتجلس بجواره وقبّل رأسها. ترك لها ما تبقى من قطعة الحشيش قبل أن ينظر باتجاهي، مشيرًا برأسه أن هيا. كنت أعلم أنه لن يسعنا البقاء في الشقة لأن السخافة التي كنا سيلاقينها من جراء وجودنا كانت حتمية. قمت لأجلب معطفي وكوفيتي من المطبخ حين نادتني أسماء، فخرجت لأجدها تشير إليّ بأن أتبعها إلى غرفتها.

- بقولك إيه، اليوروهات دول معايا من ساعة برلين، والهارد دا عليه مواد البحث بتاعت الماجيستير، لو حصلهم حاجة حتجلط. خليهم معاك وحبقى أكلمك بكرة آخدهم منك.

وضعت الأموال والقرص في الجيوب الداخلية لمعطفي. احتضنتني أسماء بحرارة نافذة، حرارة أزاحت من قلبي ضيقي منها. قبلتها بخفة والتفتُّ لأخرج لكنها عاجلتني بركلة خفيفة في مؤخرتي فالتفتت لها في تعجب.

- ماحضنتنيش كويس.

- ما أنا قرفان منك!

- طب ما أنا حضنتك جامد عشان أصالحك!

- حبقى أحضنك كويس المرة الجاية.

ضحكت وقذفتني بكتاب من على مكتبها، تفاديته وابتسمت بدوري قبل أن ألحق بحسن على باب الشقة.

على مدخل العمارة كان البواب واقفًا مع شخص غريب الهيئة، بدا لي رجل أمنٍ في زيٍّ مدني. همست لحسن بالفكرة فرد مستنكرًا ظني، إلى أن مررنا بجوارهما.

- إنتم نازلين من فوق يا باشوات؟

- آه يا ريس.

- كنتم عند مين؟

كان الأمر سخيفًا، البواب يستجوبنا مستقويًا بحضور مخبر. كنت على بُعد شعرة من شتمه غير أن حسن عاجله في هدوء:

- عند دكتور السنان.

- اللي في الدور التاني؟

- بقى إنتَ بواب عمارة ومش عارف دكتور السنان في أنهي دور؟

كان سؤال حسن الساخر ليستتبع ردًا، وعلى الأغلب مزيدًا من السخافة. فحص بطاقات ربما، وربما يتطور الأمر إلى ما لا نحسب. كان أحد أصدقائي عائدًا مع صديقة لنا من حفلة بالمعادي، أوقفه ضابط لفحص رخصه وسأله عن علاقته بالفتاة، رد صديقي بملل لم يعجب الباشا. أخذ الضابط الرخص وأوقفه إلى جانب الطريق، فأوقف صديقي بدوره تاكسيًا للفتاة لترحل وعاد للضابط بعد ساعة من الانتظار سائلًا ببعض الحدة عن السبب في توقيفه. تصاعد الأمر من هذه النقطة حتى انتهى بصديقي مضروبًا في القسم ومتهمًا بالتعدي على موظف عام أثناء أداء وظيفته. عند تلك المرحلة كان أقصى ما يمكن الوصول إليه هو

الاستعانة بوساطات متعددة لإقناع الضابط بالتنازل عن المحضر. هذا النوع من القصص يحدث أحيانًا وبشكل روتيني، أي إنه لا يثير دهشة خاصة ولا أسى خاصًا. تلك هي الحياة في القاهرة، مقامرة مستمرة واختبار دائم للفطنة وحسن التقدير وضبط النفس والمعرفة العامة عن الحياة. لذلك يتغنى المصريون باستمرار عن مدرسة الحياة والتربية التي إن لم يمارسها الأب والأم ستمارسها الأيام والليالي. أمر قاسٍ بلا شك، لكنه يورث وعيًا متزايدًا بهشاشة العالم، وهي في نهاية الأمر حكمة قيمة وعسيرة على الفهم.

رد حسن ساخرًا إذن، لكنه راهن رهانا صائبًا، راهن على مظهرنا: معاطفنا غالية الثمن وأحذيتنا الجلدية، نظارتي ذات الإطار الأنيق وساعة معصمه السويسرية. أوقف المخبر البواب عن الاسترسال في الردود وأشار لنا أن نمر منعًا لاستمرار النقاش.

خرجنا إلى الشارع أخيرًا. وضعت يدي على معطفي مستوثقًا أن هارد أسماء ونقودها في جيبي في حين أشعل حسن سيجارة، وتمشينا معًا عابرين وسط البلد بينما تنهمر من حولنا عربات الشرطة من مكان مجهول لتقضّ مضاجع أناس آخرين سنعلم عن أكثرهم بؤسًا صباح الغد حين تصلنا أخبار الاعتقالات والنيابات عبر مناشير الفيسبوك.

لم يكن لديّ مكان حقًا أذهب إليه، منزلي بارد منذ تركته آية، وأمي في الإسكندرية مشغولة بأيامها الأخيرة قبل المعاش، وأختي في أمريكا مع زوجها وابنتها. فكرت في فكرة أخرى وصرفتها سريعًا. بادرني حسن بالسؤال إن كنت أرغب في لعب دور طاولة سريع على القهوة، هززت كتفي، وعدنا معًا باتجاه ستراند. كانت نوبة عمرو، أكثر قهوجية وسط البلد أناقة، بقميصه الأبيض وحركته المنمقة. هز عمرو رأسه حين رآني في أقصى بادرة ودود أبداها تجاهي منذ بدأت ارتياد القهوة منذ

عشر سنوات، لكن ملامح وجهه سرعان ما تبدلت حين لاحظ حسن ورائي. طلبت حجرًا من المعسل وسوبيا مثلجة على الرغم من برودة الجو وطلب حسن قهوة. حين أتى عمرو بالطلبات كان بوكس قد توقف بمحاذاة الرصيف المقابل من القهوة وهبطت منه قوة لتصعد في العمارة المقابلة.

- هو فيه إيه يا عمرو؟

- وسط البلد مقلوبة يا باشا، تالت يوم عالحال دا. امبارح راحوا وجم وراحوا، وبعدين عسكروا قدام القهوة خدوا مشاريبهم أربع ساعات كاملة، ومادفعوش حاجة ومشيوا.

- طب هاتلنا طاولة.

نظرت إلى حسن وانكببنا على المشاريب محاولين صرف ذهننا عن الأمر قبل أن يأتي عمرو بالطاولة لنشرع في اللعب. لسنوات فشلت في تعلم الأسماء الفارسية لأرقام الزهر، لم يجر الأمر على لساني بالسهولة ذاتها التي يجري بها على ألسنة رواد المقاهي في القاهرة. لاحظ حسن الأمر ووجّه لي ملاحظة ثانية حول كوني مبتدئًا واختتم دورنا الأول بهزيمتي هزيمة مذلة، هزيمة كاد بعدها أن يغلق الطاولة كون لا تسلية حقة في هزيمة مبتدئين. أصررت على لعب دور ثان اقتربت فيه من هزيمته دون جدوى. كان يوجهني في وسط اللعب للخانات الأفضل للعب قطعي لكنني رفضت نصائحه بإصرار في أغلب الأوقات؛ كانت تصدر من مكان متعالٍ وكنت لا أقبل أن أربح بطريق أهدانيه. بعد ثاني دور رن هاتفي، نظرت في شاشته وقمت لأرد. مد يده ليغلق الطاولة، فأشرت له محذرًا وخرجت من القهوة.

- أيوا.

- ما بتكلمنيش ليه؟

كان الأمر معقدًا. شديد التعقيد في الواقع.

تعرفت إلى دلال في السينما. كنت أشاهد فيلمًا كرديًا رديئًا، بعدما خرجت في وسط الفيلم لتخرج ورائي مخبرة إياي أنني نسيت حقيبة ظهري بالداخل. أخذتها شاكرًا، لكنها لم تعد للفيلم ثانيةً. طلبت كوبًا من بيبسي الماكينة ووقفت لتشربه. اقتربت منها قائلًا إنني على الأغلب قد رأيتها قبلًا، فذكرتني أنها كانت قد زارتني وآية في منزلنا حينما أقمنا عيد ميلاد لأحد أصدقائنا المشتركين. استغربت، لم أكن لأنسى وجهًا بهذا الحسن. عاجلتني بأنها سمعتني بالداخل أسب مخرج الفيلم بصوت خفيض، ضحكت وتأسّفت إن كنت قد أفسدت مشاهدتها للفيلم، فردت: «لا دا خرا». لاحقًا أتت آية وسلمت عليها بلا عناية وخرجنا. فيما بعد تقابلنا مصادفة في مكتبة في الزمالك عقب وفاة جدتها. أخبرتني عن الأمر، أخبرتها عن خوفي من الموت، عن خواطري السوداء تجاه موت أمي، ودمعت عيناي. سألتني فجأة إن كنت أحب كعك الجزر، أخبرتها أن نعم، طلبت لنا واحدًا، أَخَذَت قطعة ثم تفلتها قائلة: «رديئة»، ورحلنا. لاحقًا أخبرت آية أني قابلتها فرفعت حاجبيها ولم تعلق، وعندها ظننت أنه ربما من الحكمة ألا أقابلها مصادفة ثانيةً.

تقابلنا مصادفة، ثانيةً، وهذه المرة كنت وآية نمر بوقت رديء من علاقتنا. كنت قد تركت لها منزلنا وذهبت للإقامة عند أحد أصدقائي. لم نتقابل لعشرة أيام لكن دعوتنا لحفل زفاف صديقين مشتركين أجبرتنا على الاجتماع علنًا. قبّلت آية حينما دخلت قبل أن تتركني لتتجه إلى المرقص. رنوت بنظري إلى البار لأرى دلال واقفة. كانت المصادفات قد توقفت عن الانهمار منذ رفعت آية حاجبها، لكن ترتيبًا ما لا أعلمه أفضى إلى أن أجد دلال واقفة على البار في فستان أسود أنيق يفصّل محاسن جسدها. استغربت؛ لم أكن لأنسى ردفًا بهذا الجمال. اقتربت منها واحتضنتها كأننا أصدقاء حميمون، بدت مسرورة لملاقاتي بقدر

سروري، عاتبتني على أننا لم نتقابل لأشهر، عاتبتها على أننا لم نتقابل لأشهر، اتفقنا على أن نتقابل بعد يومين من العرس. صباح يوم اللقاء تركتني آية.

- إنت ياض!

- أيوا.

- ما بتكلمنيش ليه؟

- مانا بكلمك أهو.

- إنتَ حتستهبل؟!

كان لدلال حسٌّ آمر، وكان الأمر يعجبني. كان يروقني أن تشتهي فتاة امتلاكي مثلما يروقها أن أحادثها في التليفون حينما نفترق ليلًا حتى أتأكد أنها بلغت منزلها معافاة.

- أنا آسف طيب.

- حشوف مزاجي بقى وأقولك لو مقبول أو لأ.

كانت علاقتي بدلال تتطور في اتجاهات متشعبة. حينما التقيتها يوم تركتني آية كنت أخطط أن أبقى معها لساعة، ساعتين، لا أحادثها عن أي شيء ذي معنى، قبل أن آخذ قطارًا لأعود إلى الإسكندرية لأيام، قد تطول وقد تقصر. ما حدث أنني قضيت معها نهارًا كاملًا، ننتقل من مقهى إلى مقهى في شارع تسعة: من القهوة الصباحية، للغداء، للشيشة قرب المغرب. بكيت، ألقيت نكاتًا، شعرت بثقل الوجود، شعرت بخفة بالون ممتلئ بالهليوم، حكيت كل شيء عن كل شيء، كأنني عرفتها منذ كنت جنينًا، كأننا غرباء التقينا في قطار.

في الأيام التي تلت ذلك اليوم كنا نتحادث يوميًا، لساعات أحيانًا إن لم نلتق، لكننا كنا نلتقي يوميًا، لساعات. كنت قد تركت بيت صديقي

بالمعادي عائدًا لبيتي أنا وآية بعدما قررت هي أن تتركه لي. لم يكن الأمر مريحًا دائمًا، لكن مواجهة أشباح الماضي نشاط محبّب أحيانًا. كنت آخذ دلال في نزهات ليلية لنذرع الحي جيئة وذهابًا، جنوبًا من حديقة الأورمان حتى أقصاه شمالًا عند باسكن روبنز على أول البطل أحمد عبد العزيز؛ نمر بتشيليز لنأكل دجاجًا بالعسل، ثم نمشي حتى محل الوافلز أمام سفارة التشيك، ونمر بحواف داير الناحية هازئين بنظرات أبناء النواصي المتربصين. أمشي، وتمشي دلال مشيتها التي تبدو وكأنما اخترعَتها توًا، كأنما لفقت عدة حركات لكائنات. كيف يمشي قط؟ كيف يمشي ثعلب؟ كيف يمشي حصان؟ أو لنسأل بجدية أكبر، كيف يمشي الجمال؟ كيف يخطو البهاء؟ كنت أوغل بداخل شيء لا أدركه تمامًا مع كل خطوة خطوناها معًا.

- إنت فين؟

- وسط البلد.

- بتعمل إيه؟

- ولا حاجة.

- طب أنا عند سهى، تعالى خدني.

كانت حاسمة تمامًا، نوع الحسم الذي تمارسه حينما تدرك كم هي نافذة سلطتك. فكرت أن أخيّب أملها، لكنني أردت رؤيتها حقًا. رجحت أنها علمت بما أخبرتني به فاطمة بخصوص آية، ولذلك حادثتني. كان الأمر مريحًا بقدر ما كان مزعجًا. انتابني شعور بالطمأنينة لعنايتها بي ممزوجًا بالغضب كوني لا أريد شفقتها. كنت أفتقدها، لم أحادثها منذ يومين. كنت قد مررت بمحل عملها، وغمزني أحد الأصدقاء في مكتبها بعبارة حول، أن دلال تراني بأكثر مما يراني هو. دافعت عن نفسي بضراوة، لكن الملاحظة استوقفتني، وحينما أتت هي كنت واجمًا أفكر

فيما قال. سألتني عما أصابني، أخبرتها، شتمته قائلةً إنه يغار لأنه قاربها منذ أشهر وأبدت هي عزوفًا عن الأمر. أثار الأمر أسئلة أكثر في نفسي لكنني لم أتحدث عنها. رحلت مبكرًا ولم أحادثها منذ ذلك اليوم.

- طيب حجيلك.

- قدامك قد إيه؟

- حكلمك وأنا تحت.

عدت لحسن، كان قد أغلق الطاولة فعدت وفتحتها، لكنه أخبرني أن لا مزاج له للعب. بينما كنت على الهاتف نزل العساكر بشخص يعرفه من العمارة المقابلة، لاعب درامز في إحدى الفرق المستقلة. سألته إن كان يفضل القيام، رد بنعم وخرج مجريًا مكالمات خمنت أنها لأصدقاء، لمحامين حقوقيين، لصحفيين؛ روتين الاعتقال الممل. دفعت الحساب وخرجت من المقهى. سألني حسن إلى أين سأذهب وهو على الهاتف، أخبرته بصوت خافت «المنيرة»، فأشار لي أنه سيرافقني. رغبت في الاعتراض لكنه كان قد عاد للتليفون. ما البأس؟ مشيت ومشى في إثري.

كان الطريق إلى المنيرة فيما مضى سهلًا؛ شارعًا واحدًا نقطعه بلا انحراف، يبدأ من حاتي الجيش وينتهي في شارع المبتديان. في ذلك الشارع وقفت يومًا من أيام أغسطس الحارة أتأمل في اللهب المتصاعد من مجلس الشعب في 2008، وأفكر في موت القاهرة. أي شيء ينقص مدينة عجوزًا لترقد بلا رجعة؟ ربما تلك هي الأزمة، أن القاهرة أكثر إرهاقًا من أن تستلقي مرة واحدة وإلى الأبد، تشغلها أفكارها عن الموت؛ لا تكاد تخلد إلى حال حتى يدفعها خيالها لحركة لاهبة. كم عللتنا بالحياة وكم غدرتنا. كنت أعبر شارع محمد محمود متحسبًا لانتشار ضباط الداخلية، متذكرًا بمرارة أولئك الذين قضوا تحت هذه الجدران، الحوائط، على الأرصفة، على أسطح البنايات. أينا كان أعند، نحن أم الحلم؟

بدت بناية سهى من بعيد فأخرجت هاتفي لأحادث دلال. كان الشحن قد انقطع، أمسكت به كسمكة باردة لا أعرف ما أفعل به، قبل أن أعيده إلى جيبي. اعتصرت ذهني محاولًا تذكر رقم شقة سهى، لكن باب البناية سهّل عليّ الأمر، إذ كان مغلقًا بقفل سميك. التفتت إلى حسن، كان ما زال يتحدث على الهاتف. أشرت له لكي ينهي مكالمته سريعًا، انتبه إلى إشارتي، أغلق الخط واقترب. سألته إن كان رقم دلال بحوزته، أخبرني أن نعم، قلب في هاتفه ثم عاد وقال لا. وقفت أنظر إلى بلكونة سهى لعلها تنظر، ثم حاولت فتح الباب في تحرك عبثي. سألته إن كانت معه نمرة فؤاد، بحث في هاتفه حتى وجدها. استغرقت المكالمة ثلاث دقائق قبل أن يعود ليخبرني أن فؤاد أضاع هاتفه منذ أسبوع وهاتفه الجديد ما زال يخلو من أغلب معارفه. نظرت في قنوط إلى المدخل. وقفت للحظة قبل أن أهم باتجاه ناصية الشارع، لكن حسن أوقفني قائلًا إنه سيجري محاولة أخيرة.

- إيه يا شيرو، عاملة إيه؟ إنتِ تمام؟ مال صوتك؟

كان ينظر لي في قلق بينما يتحدث، أشرت له أن يسألها على النمرة سريعًا، فرد ضامًا أصابع يده أن اصبر. على ما يبدو لم يكن هناك من بُدّ سوى انتظار شيرين لتنتهي من الشكوى. وقفت بملل أمام الباب وتركته يحادثها، وإذ بي أسمع صرير باب العمارة. كانت دلال.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أرى دلال تظهر من مكان ما -تقترب من أفق، تخرج من باب- لكن راحة ما حفّت قلبي لمرآها. اتسعت ابتسامتي في حين اقتربت لتضمّني. احتضنتها حتى شعرت بيدها تربت على كتفي مهدّئة. تركتني واقتربت من حسن لتسلم عليه، ثم عادت لتقف بجواري.

- اتأخرت.

- لا أنا جيت على طول، بس لقينا الباب مقفول وموبايلي فصل شحن وحسن مالقاش النمرة عنده وكلمنا فؤاد وفؤاد ضيع موبايله، وحسن كلم شيرين عشان ياخد نمرة تليفونك بس إنتِ جيتِ قبلها.

- إيه دا، دي شيرين؟ هاتها!

عادت لحسن وطلبت منه الهاتف فأعطاها إياه. طلب مني سيجارة، أخرجت واحدة وأشعلتها له وأشعلت أخرى لنفسي، بينما ظلت دلال على التليفون. اقتربت مني وأخذت السيجارة التي أشعلتها وسحبت نفسًا بينما تنظر في عيني، ثم أعادتها قبل أن تبتعد. أربكني الأمر قليلًا، نظرت لحسن بطرف عيني فلمحت ابتسامة تتلاعب على زاوية فمه. نهضت من جواره وتحركت باتجاه باب العمارة ناظرًا إلى المدخل الفسيح.

- طب استني أسألهم.

عادت دلال لتسألنا إن كنا نرغب في الذهاب إلى شيرين. وافق حسن على الفور بينما همست لها أنني لا أعرف من هي شيرين من الأصل، أشاحت بيدها بلا مبالاة وأخبرتها أننا في الطريق. أنهت المكالمة وأعادت الهاتف لحسن قبل أن نتجه إلى ناصية الشارع لنأخذ تاكسي. كنت أمشي بجوار دلال، يحتك جسدانا بينما تسير هي متأرجحة كعادتها، فأشعر بحرارة جسدي ترتفع نصف درجة. لم أكن قادرًا على تحديد ما يجري برأسها؛ كان صوتها يحمل أمرًا طارئًا ما، والآن تمشي خفيفة قليلًا. خمّنت أنها الخمر، لكنها لم تبد مخمورة بالضرورة.

في التاكسي احتل حسن مقعده بجوار السائق، بينما جلست بجواري دلال في المقعد الخلفي. لاحظَت دلال صورة لأبناء سائق التاكسي ملصقة على التابلوه، لكزتني في ذراعي ثم أشارت برأسها باتجاه التابلوه فنظرت. كان الفتى والفتاة واقفين بشكل مما اصطلح عليه جماليًا أهل

المناطق الأفقر في القاهرة، كان الفتى ساندًا ذقنه بقبضة مضمومة وكوعه مستند إلى ركبته المرفوعة بينما كعبه مستند على قائم أرجل الكرسي الأمامية، وأخته تضع يدها على كتفه واقفة، وفي خلفية الصورة بدت نسخة باهتة من تكوين المقدمة في حين بدا على اليمين الأخ وحيدًا من زاوية أخرى، ذقنه مستندة على قبضته المضمومة بينما يبدو مهمومًا بمستقبل محادثات السلام في ظل التوسع الاستيطاني على ما يبدو. كان الأمر سرياليًا؛ أصداء الطفلين في أنحاء الصورة، غرابة التكوين، المساحة، حتى ألوان الخلفية التي تراوحت من الزهري للأزرق الفاقع. ضحكت لسخف الصورة، لكن جمالًا ما كان ينبعث من الفجاجة والمبالغة والتكرار جعلني لا أكاد أرفع عيني عنها؛ إيقاعها الداخلي ربما، وتركيبها بحيث تتراتب من استناد الكعب على قائم الكرسي الخشبي إلى استناد الكوع على الركبة، وصولًا إلى استناد كف الفتاة على ظهر الفتى. عدت بنظري إلى دلال، كنت أعلم أنها قدرت الشيء ذاته في الصورة. ضحكنا بصوت خافت بينما يغمرنا ما حسبته امتنانًا، لكوننا نحن، لكون تلك الصورة ملصقة على التابلوه.

نزلنا في المنيل على الكورنيش ناحية كوبري عباس أمام عمارة يبدو عليها القدم. اقترح حسن أن نشتري قليلًا من المقرمشات في طريقنا للأعلى، ثم ذهب مسرعًا تاركًا إيانا على الطريق. اقتربت دلال مني ووقفت بجواري.

- وحشتيني.

كانت علاقتي بدلال تربكني. كان حنيني لآية لا يزول، لكن شيئًا ما يخطر ببالي حينما تخطر دلال أمامي. أعلم أن أسهل طريقة لوصف مثل هذه الأحوال هي استخدام ما قاله جياكوميتي يومًا بعدما تعرض لحادث سير: «شيء ما حدث لي.» لكن الأمر كان حقًا. شيئًا ما يحدث لي. كنت

أنتبه لنفسي وقد مرت خمس ساعات في صحبتها فلا أعلم فيم مرت. في الليل يجتاحني رعب فراق آية، أحادثها، أوقظها فتهدهدني، بحزم وبرقة، بصوت أخضر داكن كصفحة النيل، قاتم الزرقة كليل القاهرة. كنت أخبرها أنني مضطرب، أنه ربما كان من الأفضل أن تفر بنفسها بعيدًا، أن تركض باتجاه أمورًا أكثر جلاءً، فترد متبجحةً أنها فتاة كبيرة. كنت أبتعد فتقترب ثم تبتعد فأهرول نحوها خائفًا، فتتلقاني ثابتة الجنان محبة فيخيفني ثباتها فأهرب فتعيدني. أرهقتها وأرهقني عقلي.

- عشان كدا ما بتكلمنيش بقى لك تلات أيام؟

- عايز أقولك حاجة.

- قول.

- آية صاحبت.

لم أفكر قبل اللحظة في أن أخبرها، جرى الأمر على لساني، وللحظة بعدها انزعجت أنه انزلق بهذا الشكل. توقفت دلال عن الكلام ونظرت في وجهي مدققة، باحثة عن دليل إلى ما يجري بذهني. نظرْت في الأرض، فوضعت هي يدها على مؤخرة رأسي، داسة أصابعها في شعري. رفعت رأسي كي أرقب الشارع حولنا لأرى إن كان هناك مار تائه في هذا الجحيم الشتوي. كان الشارع خاليًا ففكرت أن أستند برأسي إلى صدرها، لكن قدوم حسن سبقنا. هتف من مبعدة «يلّا!» ثم سبقنا إلى مدخل العمارة.

كانت شيرين واقفة تنتظر وراء الباب الموارب، على الأرجح سمعت صوت توقف الأسانسير ففتحت لترى إن كنا نحن القادمين. اتجهت لها دلال محتضنةً في البداية ثم حسن. سلمت عليها أخيرًا قبل أن تسبقني للدخول إلى الشقة تاركةً إياي على الباب. كان يبدو أنها انتقلت إلى الشقة حديثًا: رائحة دهان جف للتو، مساحات خالية من الأثاث، طاولة

وكراسٍ للسفرة مغلّفة بأشرطة بلاستيكية لم تُنزع بعد، أجهزة كهربائية في صناديق، سجاجيد ملفوفة. كان الأكثر حضورًا في المشهد كله صورة شخصية بالغة الكبر بالأبيض والأسود لامرأة في العقد الرابع من العمر بقصة شعر وغطاء رأس حريري لافتين تنظر بصرامة باتجاه الكاميرا، ثم التفت لأجد صليبًا مهملًا في أحد زوايا الصالة.

- تحبوا تشربوا حاجة؟ فيه فودكا، براندي، رام، ويسكي... أنا بقول ويسكي، عندي قزازة بلاك ليبل لسة مافتحتهاش.

جاءت من المطبخ حاملة أربعة أكواب -اثنتين في كل يد- والزجاجة تحت إبطها. خطر لي أن أخبرها أن هناك طرقًا أكثر أمانًا لحمل الأكواب والزجاجة، لكن حمرة عينياها منعتني من المخاطرة. في اللحظة ذاتها التي مرت فيها الخاطرة في ذهني سقطت الزجاجة على الأرض مُحدثةً دويًا مسموعًا في فراغ الشقة. نظرت للسائل الذهبي بحسرة بينما يتفرق على بلاط الشقة القديم، في حين أخذت شيرين تكرر: «أنا آسفة، أنا آسفة، ماحصلش حاجة.» حاول حسن القيام من مكانه لمساعدتها في لملمة الزجاج المتناثر، فرفعت رأسها تجاهه بعصبية بالغة: «خليك مكانك، أنا حتصرف.» ثم نهضت إلى المطبخ وعادت بمقشة قصيرة اليد وجاروف، بدأت في لملمة الزجاج بإيقاع عنيف بينما عادت لتكرر «ماحصلش حاجة»، قبل أن تشرع في البكاء فجأة. بوغتنا جميعًا. نظر لي حسن في حيرة، بينما اقتربت دلال من شيرين لتأخذ من يدها المقشة والجاروف وتحتضنها مهدئةً: «في إيه بس؟» تعالى صوت بكاء شيرين بينما تربت دلال على كتفها، ثم بدأت تبكي هي الأخرى في صمت. لم ألحظ في البداية، لكن انعكاس ضوء المطبخ على وجهها أثار لمعة التقطتها عيناي قبل أن يفسرها عقلي. أخذت دلال تهدئ شيرين وتدمع قبل أن أسمع حسن يصدر نهنهة خاطفة ويخفي وجهه في ذراعه. وقفت ذاهلًا واتجهت إلى البلكون. لم تكن تلك هي توقعاتي للأمسية. القاهرة

ثقيلة كجثة فيل نافق تقع على طابور نمل، والهواء حديد يملأ رئتي. ركزت بصري على كوبري عباس متأملًا السيارات المارة من مبعدة، قبل أن أشعر بشيرين تدخل البلكونة.

- معلش، أنا آسفة. أول مرة تشوفني تلاقيني قاعدة أعيّط زي العبيطة كدا.

- ولا يهمك، إنتِ أكيد عايزة تقعدي مع أصحابك وأنا جيت طبّيت معاهم.

- لا أبدًا، منوَّر.

ثم مدت يدها باتجاهي:

- أنا شيرين.

- حازم.

- عارفة.

- ما أنا عارف برضه، بس آدينا بنحاول نعمل نفسنا ماحصلش حاجة جوا...

ضحكت واصطحبتني من ذراعي لداخل الغرفة. كانت الأرضية تلمع إثر السائل المنساب، لكن حطام الزجاجة كان قد اختفى. لاحظتُ حسن يمسح وجهه، بينما ذهبت دلال إلى المطبخ لتأتي بممسحة. دخلت شيرين غرفتها لدقائق ثم عادت بقطعة من الحشيش ووضعتها على الطاولة.

- أهو دا مش حيتكسر.

أخرج عليّ ورق بفرة لكنها أزاحته وأتت بكوب زجاجي مغطى سطحه بكيس بلاستيكي مثقوب في موضعين، موضع يمر منه دبوس معلق به قطعة الحشيش المشتعلة والموضع الآخر يتم امتصاص الحشيش من

خلاله. كانت الطريقة الأكثر فاعلية لشرب الحشيش. مرّ الكوب على الجالسين في حين فتحت شيرين البي بي سي لتشاهد نشرة العاشرة. كانت النشرة مليئة بالكوارث من حول العالم: حريق ضخم في مكان ما في آسيا، طائرة تسقط، اكتشاف مقبرة جماعية. لاحظ حسن الأمر بعد الخبر الثالث وأطلق نكتة حول اقتراب يوم القيامة. كنا غائبين عن الوعي تقريبًا لكن أحدنا لم يضحك، مما ساء حسن بشكل من الأشكال كما بدا. نهض وأخبرنا أنه سينزل، سألته لم، أخبرني أن الوقت تأخر وأنه يجب أن يعود إلى زوجته، ثم اتجه إلى الباب مكتفيًا بـ«سلام» عالية. ما إن غادر سألت شيرين إن كنا نود أن نأكل فأخبرتها أن نعم. طلبت بيتزا بالجرجير من محل بالزمالك، اعترَضْتُ قائلًا إني لا أحب الجرجير، فوضعت دلال يدها على يدي قائلة إني سأحب هذا الشيء تحديدًا، ثم استندت برأسها على كتفي. أغلقت شيرين الهاتف ثم عادت وأشعلت قطعة أخرى من الحشيش معلقة في طرف دبوس ووضعتها في الكوب. سَحَبَت نفسًا ثم وضعت الكوب ليراكم دخانه قبل أن تلتفت لدلال:

- إيه اللي خلاكِ تجيبي الواد دا معاكم؟

- أجيبه معايا إيه يا شيرين؟ أنا نزلت لقيته معاكِ عالتليفون أصلًا.

- ما أنا بستظرفه. أو مش عارفة يعني، إنتِ سمعتِ عنه هو والبت اللي ماشي معاها دي؟

- بت مين؟

- ماشي مع بت كدا مخرجة مسرح على مراته.

- مش مشكلة.

- مش مشكلة إزاي؟

- حنعمله إيه يا شيرين يعني؟ حنربيه من جديد؟

- لا مش حنربيه ولا حاجة. مش عارفة، بس عيشة خرا بصراحة.

سحبت شيرين نفسًا آخر من الكوب، كحّت قليلًا ثم استلقت على الأرض مستطردة:

- عيشة خرا وعالم خرا، وأنا زهقت فشخ وعايزة أسافر ومافيش فلوس ومش عارفة أسافر ليه مادام حرجع القاهرة تاني، ومافيش فايدة أصلًا من الهروب ما دمنا عايشين كدا كدا.

لم ترد دلال، وبالطبع لم أرد. بقيَ صوت النشرة الجوية للبي بي سي يتردد في المكان مبشرًا إيانا بأمطار كثيفة في لندن وثلج في إسطنبول وجو مشمس في دبي. استلقت دلال على فخذي ووضعت يدي على كتفها. نظرت في وجهها بامتنان بينما تراكم الدخان في كوب الحشيش. حينها نشب صوت جرس الباب ظفره في نسيج الرتابة الذي كان قد عم علينا. هرعت كل من دلال وشيرين إلى حقائبهما الملقاة في أطراف الغرفة تبحثان عن نقودهما، في حين قمت وفتحت الباب ودفعت الحساب وعدت بالبيتزا. كنا جائعين بشدة من أثر الحشيش. فتحت زجاجة من البيرة وازدردت قطع البيتزا غير مبالٍ بكراهيتي للجرجير. بعدما أنهينا الأكل، تلقت شيرين مكالمة ثم عادت لتخبرنا أنها ذاهبة إلى حفلة منزلية. سألتنا إن كنا نرغب في الانضمام، لم أبد أنا أو دلال حماسًا. سألتني دلال إن كنت سأعود للدقي، أخبرتها أن نعم، فقالت إنها ستعود معي. استوقفتنا شيرين بعد أن نهضنا قائلة إنها قد تمر بالدقي لتشتري زجاجة جلينفيديك مهربة بدلًا من تلك التي كسرتها وأن بإمكاننا القدوم لو أردنا، فرددت أنني أرغب في التمشية. اقتربت مني ومدّت يدها مسلمة ثم جذبتني وقبّلتني على وجنتيّ:

- أنا مش مجنونة، أنا بس يومي كان صعب.

هززت رأسي متفهمًا بينما اتجهت لدلال تحتضنها، ثم رحلنا.

لطالما أحببت كيف تمطر في القاهرة. في مدينة حارة تُدعى القاهرة لم يكن بوسعي التفكير في المطر سوى أن السماء تدمع أسفًا علينا، نحن سكان هذه المدينة المحزونة. كانت السماء تمطر بخفة حين خرجت أنا ودلال من العمارة إلى الشارع. سألتني إن كنت أرغب في أن نستقل تاكسي، أخبرتها أن لا. مشينا إلى ناصية الشارع ثم انحرفنا يسارًا لنمشي على كوبري عباس متجهين إلى كورنيش الجيزة.

- إنتَ حاسس إزاي؟

- حاسس إزاي ناحية إيه؟

- آية.

- حاسس تمام.

- تمام؟

لم أكن أرغب في الاسترسال، تشاغلت بالبحث عن علبة سجائري في جيوب البنطلون ثم المعطف، وجدتها ورفعت رأسي لأرى أحد بائعي حمص الشام على الكوبري مُحدّقًا بنا، قبل أن ينحني على زبون بجواره ليلتفت لنا بدوره ثم يبادله ابتسامة صفراء. سنوات العيش في القاهرة تكسبك جلدًا سميكًا والتفاتًا صفريًا لأي شيء لا يرقى لمستوى التهديدات الوجودية، رغم ذلك فكرت – في لحظة يائسة – أن أتجه إليه وألكمه في أنفه. التفت إلى دلال. كانت تنظر إلى البائع ذاته، ولاستغرابي أشاح الرجل بوجهه هو وزبونه البائس بدلًا من المزيد من التحديق. سحبت دلال سيجارة ودسّتها بين شفتيها وأخرجت ولاعة من حقيبتها فأشعلت سيجارتها لنفسها ثم رفعتها باتجاهي لتشعل سيجارتي. مددت رأسي نحوها، سحبت نفسًا وزفرته بعنف.

- أنا أخدت المنحة.

التفتُّ بدهشة. لم تكن تنظر إليّ، كانت عيناها متجهتين إلى قارب

مضاء بالنيون يشق صفحة النيل في ذلك الوقت المتأخر من شتائنا القاهري.

- عرفتِ إمتى؟

- أول امبارح.

- ماقلتيليش ليه؟

- ما أنا بقولك أهو.

- طب مبروك.

كان خبرًا سعيدًا ظاهريًا، لكنها لم تبدُ سعيدة، ولم أكن سعيدًا أيضًا. لم أدرِ كيف أرد. سحبت نفسًا آخر من السيجارة وألقيت بها من فوق الكوبري نصف منتهية.

- مستغرب إنك ما كلمتينيش ساعتها.

- ما أنت مكونتش بتكلمني.

- ماكنتش قاصد. أنا بس مش عايز الدنيا تبقى ملخبطة.

- ملخبطة إزاي؟

- مش قصدي ملخبطة... مش عارف.

لم تلح ولم أستأنف. كنا قد هبطنا من كوبري عباس وبدأنا في المشي باتجاه ميدان الجلاء، على يميننا البواخر النيلية الفاخرة، وعلى يسارنا سفارة فرنسا. ساد الصمت لوهلة، حينما تناهى إلى سمعي صوت مواء ضعيف. أوقفت دلال وطفقت أبحث عن مصدر الصوت. عدت خطوات إلى الوراء، نظرت بجوار سور الكورنيش، تحت السيارات القابعة بجوار الرصيف، حتى لاحظت دراجة نارية تتفادى كتلة لا يمكن تبينها في وسط الطريق في اللحظة الأخيرة. كانت قطيطة صغيرة، حديثة الولادة على ما يبدو، لم تبد لي قادرة على الحركة، وإن كانت ما زالت تصدر صوتًا.

خلعت معطفي وتأكدت من خلو الطريق من السيارات. في اللحظة التي اقتربت منها للمرة الأولى مرت سيارة مسرعة فوقها، لم أدر إن كانت قد دهستها أم لا لكنني أطلقت شتيمة عالية احتجاجًا ثم اقتربت وألقيت المعطف عليها ولففتها فيه مصطحبًا إياها إلى جانب الطريق.

كانت دلال ما زالت هناك لا تفهم تمامًا ما يحدث. ألقيت عن ذراعي المعطف ورفعت هاتفي إلى أذني طالبًا أسماء. ردت بصوت يملؤه النعاس محتجةً من تأخر الوقت، سألتها إن كانت تعلم عن ملجأ للقطط أو طبيب وأخبرتها بما حدث، قالت إنها ستجري عدة مكالمات وستعود لي. أغلقت الهاتف ثم عدت إلى دلال، سحبت منها المعطف ووضعته على جانب الطريق وفتحت ناظرًا إلى القطة. كانت السيارة قد داست على رأسها؛ انسحق مخها في حين تدلت عيناها من وجهها. كان المنظر عنيفًا. كنت أفكر إن كان بالإمكان إنقاذها لو كنت قد تحليت بقليل من التهور فخطوت إلى نصف الطريق موقفًا العربة المسرعة. على الأغلب كان ليطيح بي أنا الآخر. لا أحد يهتم لأمر قطط المدينة.

- ماتت؟

سألت دلال في الوقت ذاته الذي رن جرس هاتفي. كانت أسماء. رددت مخبرًا إياها أن القطة ماتت واستمعتُ إليها تحاول تهدئتي. أغلقت الهاتف، أفرغت معطفي من الجثة مسقطًا إياها على المشتل القابع ضفة النهر، واتجهت إلى عرض الطريق.

- إنتَ حتعمل إيه؟

- حوقّف تاكسي، زهقت من المشي.

- بس إنتَ قلتلي حتمشّيني.

- قلتلك حتمشى وإنتِ جيتِ معايا.

- طب خلاص، براحتك.

ابتعدت دلال بالخطوة السريعة ضامّة معطفها على جسدها الضئيل. مر من أمامي تاكسي، رفعت ذراعي فتوقّف. نظرت إلى دلال، كانت قد توقفت لتنظر ما أنا فاعل. تأسّفت لسائق التاكسي، شتمني، عدت لأجلس على سور المشتل حيث ألقيت القطة. عادت دلال لتقف أمامي صامتة. نَظَرْت حولي لأتأكد من خلو الشارع، ثم أرحت رأسي على بطنها. نَظَرَت حولها لتتأكد من خلو الشارع، ثم وضعت يدها على رأسي وضمته إلى جسدها.

- عيّط.

انفلت بداخلي شيء مجنون، شيء كنت أحاول منعه منذ زمن. تذكرت الانهيارات الأرضية التي عمت شوارع القاهرة في العام السابق على الثورة، وشعرت بقلبي يتشرّخ كزجاج سيارة تعرض لتوه لصدمة عنيفة. انسالت الدموع من عيني حارّة، وتعالى نشيجي. هذه المرة، لم تنبس دلال بكلمة؛ في المقابل شعرت ببلل خفيف على مؤخرة رأسي، قطرات ساخنة أخرى في أماكن غير متوقعة. اهتز جسدي بعنف. مر رجل في الطريق حاملًا كيسًا بلاستيكيًا، تجاوزنا في البداية، ثم توقف وعاد ليقف بجوارنا، متجهًا لدلال بسؤال من كلمة واحدة مقتضبة:

- ما له؟

ردت دلال بجدية:

- القطة ماتت.

صمت الرجل للحظة ثم قال:

- البقاء لله، شد حيلك!

رحل الرجل، وتوقف بكائي بعد هنيهة. رفعت رأسي ناظرًا إلى دلال:

- القطة ماتت؟

وضحكت، بصوت عالٍ وإن كان بثقل واضح. قمت ودفعتها وقلدت
جهها وهي تقول آسفة: «القطة ماتت.» بدأت في الضحك هي الأخرى
هي تردد: «طب كنت أعمل إيه يعني؟» لففت ذراعي حول رقبتها
انحنيت برأسها برفق قبل أن أدفعها مازحًا لنتابع بعدها السير ضاحكين.

- دلوقتِ إنتِ حتمشي ومش حلاقي حد أعيّط معاه.

- يمكن ما أمشيش.

- ما تمشيش ليه؟

- لسه بفكر.

- بتفكري في إيه، إنتِ مجنونة؟ روحي خلصي الماجيستير وشوفي حاجة تعمليها أفيَد من إنك تستحملي سخافة الظباط في اللجان والناس في الشارع.

- إنت ساذج يا حازم. الموضوع صعب.

- مافيش حاجة سهلة، بس أغلب الحاجات في العالم أسهل من العيشة في القاهرة.

- مافيش حاجة سهلة.

أردت أن ألقي دعابة، لكنني أدركت أن سخريتي ستكشف هشاشة ما في نفسي. انقلبت لدلال متأملًا في وجهها على ضوء موقع بناء سفارة السعودية الجديدة على النيل. عيناها البنيتان الواسعتان، شفتها السفلية الممتلئة، ذقنها المنمقة، غمازتاها، خداها البارزان. فاض في قلبي حنان تجاهها. كم وسعتني حينما ضاقت بي نفسي. تذكرت لقاءنا الأول بعدما تركت آية. سبع ساعات قضيناها معًا؛ ضحكت وبكيت، ألقيت نكاتًا وحكيت قصصًا مأساوية، استمعت وتلامست ظهور أيدينا بخفة أثناء المشي متجاورين.

- حتوحشيني.

- وإنتَ كمان.

أخذت يدي في صمت وضغطت عليها، وعبرنا معًا ميدان الجلاء بينما تعم رائحة الخبيز الصاعدة من سيموندز الجو. كان البيت يقترب. من أول شارع السد العالي تجاوزنا بوب سوشي، ألفا ماركت، كنتاكي، مبنى الكشف الصحي لطالبي الهجرة للكويت، المركز الثقافي الإسباني، وتوقفنا عند كويك؛ طلبت مني أن أنتظرها ريثما تدخل لتشتري شوكولاتة. توقّفت مستندًا على سيارة متوقفة، متجهًا ببصري نحو ميدان فيني، بينما تقطع سيارة إسعاف الميدان في الاتجاه العكسي إلى مستشفى الشبراويشي ويقطع قلبي صدري جيئة وذهابًا. أكملنا مسيرنا تجاه البيت مخترقين حلقات المراهقين المتناثرة في جنبات ميدان فيني بينما أفكر في أي لحظة سأترك دلال. توقعت أن تدعوني للصعود، ولم أشعر أنني على أتم الاستعداد لذلك. لم تكن لتكون المرة الأولى التي أصعد إلى بيتها، كنت قد فعلتها مرارًا خلال الشهر ونصف الفائتين، آخرها الأسبوع الماضي. كانت مريضة، أخبرتها أني سأمر واشتريت لها كيلو من الموز، وحينما أعطيتها إياه سألتني لم كلفت نفسي العناء فقلت: «كويس عشان البرد.» أخبرتني أنني أقصد البرتقال لكنها أخذت الكيس من يدي على أي حال.

- أنا حروَّح بقى.

- تروَّح ليه؟

- ما أروَّحش يعني؟

- لا ما تروَّحش، تعالى.

- ما أنا تعبان.

- وأنا كمان، بس تعالى.

لم أرغب في الرفض الحاسم، حاولت التفلّت بلطف ولكن لما لاحظت تصميمها قلت لم لا، ما أسوأ ما يمكن أن يحدث؟ كان أثر الحشيش قد انزاح تقريبًا. فكرت؛ سأبقى لربع ساعة ثم أرحل. على مدخل العمارة ضغطَت دلال زر نور السلم والتفتت إليّ واضعة إصبعها على فمها، ثم بدأَت في الصعود بهدوء وأنا وراءها. توقفنا للحظات حينما سمعنا صوت أحد البيبان ينفتح ليخرج منه أحدهم واضعًا قمامته في صندوق المخلفات أمام مدخل شقته، قبل أن يعود إلى الداخل ويغلق الباب في صخب. بقينا على السلم حتى انطفأ النور، ثم استكملنا صعودنا في صمت.

كان المنزل أكثر دفئًا من الشارع. دخلتُ الحمام فور وصولنا لأفرغ مثانتي الممتلئة، ثم تركت معطفي على مشجب الحمام وخرجت. كانت دلال واقفة على السرير معطية ظهرها للباب تحاول بلوغ قمة دولابها. كنت أرقب جمال تكوينها حينما التفتت قائلة بحسها الآمر:

- تعالى هاتلي البطانية اللي فوق دي بدل مانت واقف!

جلست في البداية مستفزًا إياها فنزلت من على السرير ناحيتي لتجذبني، دفعتها ضاحكًا فاصطدمت مؤخرة رأسها بقائم الفراش الخلفي. وضعَت يدها على رأسها وغطت وجهها، فاقتربت منها محاولًا استجلاء ما أصابها. تحسّست رأسها، كان قد تورم تورمًا طفيفًا.

- أنا آسف.

أظهَرَت وجهًا باسمًا ودفعَتني، ثم نهضت وخرجت من الغرفة. قمت من جلستي على الأرض لأخرج لها البطانية من الدولاب، فظهرت من ورائي فجأة وسألتني إن كنت أرغب في شرب شيء ساخن. سألتها إن كان ما زال لديها ذلك الشاي الإنجليزي المنكّه بالخوخ، أخبرتني أن نعم، ثم عادت وأخبرتني أنه قد انتهى. سبقتني واحتلت موقعًا أمام

البوتاجاز ريثما يغلي الماء. كان المطبخ ضيقًا فاضطررت للاحتكاك بها بينما أمر باتجاه دولاب المطبخ. نظرَت باتجاهي فرفعت ذراعي:

- المطبخ ضيق!

نظرت في أنواع الشاي والأعشاب المختلفة لديها قبل أن أستقر على الكركديه في النهاية. وضعت الكيس في الكوب وتركت دلال تصب عليه الماء المغلي، فتصاعدت رائحته مخترقةً أنفي لتدفئ رأسي. سألَت دلال إن كنت أرغب في سكر، قلت إني أريد عسلًا. نظرت لي مستفهمة، فأخبرتها أنني أحاول استساغته مؤخرًا للإقلاع عن السكر. ابتسمت ولم ترد. وضعت السكر في كوبي وطلبت مني أن أحمل عنها كوبها ثم دخلت إلى غرفتها. وقفت ثانية حتى استطعت أن أحمل الكوبين الخزفيين دون مشاكل ولحقتها إلى السطح.

كان الجو باردًا، لكنها أشعلت لنا نارًا صغيرة في طبق حديدي مكسور لتعبئة الأسمنت خلّفه أحد عمال البناء وراءه على السطح. دعتني للجلوس، وضعت الكوبين على طاولة صغيرة وجلست. ألقت فوقي الغطاء وضحكت ثم جلست إلى جواري. فردت الغطاء فوقينا وطفقنا نتأمل النار.

- البرد في نيويورك أسوأ.

- بس الدفايات كويسة.

- بس مش حقدر أتمشّى في الشارع الفجر، هتلّج.

- بس حيبقى في رصيف تمشي عليه باقي اليوم.

- لو القاهرة فيها رصيف مشاة بس حتبقى جميلة.

- وسنترال بارك.

- والمتروبوليتان؟

- من غير المتروبوليتان حتى، رصيف وسنترال بارك بس.

وضعت رأسها على كتفي، أسندتُ رأسي على رأسها. أمسكتْ يدي بشدة. رفعتُ رأسي ونظرت إليها. كانت ترنو باتجاهي. قبلتها على رأسها محاولًا الإفلات من اللحظة، ظلت نظرتها ثابتة. قبّلتها على فاهها، ببطء وثبات، ردّتها بأفضل منها. قبّلتها مرة، مرتين، عشرًا، قبل أن يصفو ذهني لفكرة واضحة. كنت أريد المبيت في فراشي، أعني لا، لم يكن فراشي ما اشتقت له حقًا، بل خلو بالي من الهم بشأن ترتيبات العالم. كنت أخشى تلك اللحظة التي سيتعين عليّ فيها المغادرة، بعد ساعات أو غدًا ظهرًا أو بعده مساءً. بأي إيقاع سأرتدي ملابسي؟ هل سأقبّلها خارجًا؟ بأي نبرة سأتحدث معها؟ عمّ سنتحدث؟ المستقبل؟ الماضي؟ الحاضر؟ كيف سنتفادى الزمن، السياسة، السفر، الحب؟ لنفكر في أمور أبسط؛ كيف سأغلق الباب ورائي حين أرحل؟ سرت في جسدي رعدة مفاجئة من هبة برد.

- أنا لازم أمشي.

رفعت رأسها في استغراب. حاولت معاودة تقبيلي، أوقفتها وأعدت قوْلتي ناظرًا في عينها:

- أنا لازم أمشي.

نهضْت بسرعة. أطحت بالكوبين القابعين بجوار الأرجوحة في طريقي لمدخل السطح، انحنيت أفحص إن كانا قد تكسّرا حينما سمعت نشيجًا خفيفًا. نظرت باتجاه دلال، كانت تبكي واضعة وجهها في كفيها. عدت لها واضعًا يديّ على كتفها غير عالم ما ينبغي عليّ قوله. علا صوت نحيبها. شعرت بالسوء، هممت باحتضانها، دفعتني.

- امشي، دلوقتِ.

استمر البكاء. كنت أعلم ما عليّ فعله الآن. اتجهت ناحية الباب بخطى ثابتة، فتحته، ورحلت.

في اللحظة التالية لإغلاقي الباب تذكرت أنني تركت معطفي في الحمام. عبرت بذهني فكرة حمقاء في أن أدق الجرس طالبًا إياه، لكنني نحيتها على الفور. وضعت أذني على الباب محاولًا تبين أي شيء. ستبيت دلال ليلتها منكدة، وعلى الأغلب لن تحادثني -غدًا، بعد أسبوع- لن تحادثني أبدًا. وضعت رأسي على الباب وبدا أنني سأركن إلى وقفتي هذه أمدًا، غير أن أذان الفجر صعد من مكان ما لينبهني أن أوان مغادرتي قد حان. نزلت الدرج متثاقلًا وفي الدور الأول وجدت قطة تنهب من إحدى صفائح القمامة. التفتت إليّ بقلق، وددت لو طمأنتها أنني لا أريد بها شرًا، غير أنها قررت الهرب إلى الطابق السفلي ومنه إلى الشارع.

في البيت جلست على أريكة كنا قد اشتريناها معًا أنا وآية من آيكيا. كانت تشير لها دائمًا بقطعة الأثاث الأولى في زواجنا. كانت الأخيرة أيضًا. طلبت منها أن تأخذها معها عندما نقلت حاجياتها خارج الشقة، لكنها ردت أنها لم تعد مفتونة بلونها. السيئ في الأمر أنني لم أكن أحبها في الأصل، لكنني لم أستطع مجابهة حماسها يومها. هكذا انتهيت إلى أريكة أكرهها في صالون منزلي. كانت الأنوار مطفأة لكن ضوءًا عنيدًا تسرب إلى المنزل رغم الستائر المغلقة، مفسدًا عليّ مزاجي الخرب. سحبت اللابتوب والمطفأة منتويًا مشاهدة عدة مقاطع من البورن لعل الأمر يساعدني على الاسترخاء والنوم. أنارت الشاشة وإلى الجوار ظهر تنبيه صغير عن ورود رسالة جديدة إلى صندوق بريدي. كانت آية. شعرت بحرقان مفاجئ في فم معدتي ورغبة حارقة في دخول الحمام. متى أرسلته؟ منذ ساعة بحسب توقيت البريد. أين كنت؟ أحمل قطة

ميتة إلى جانب الطريق؟ يد دلال تحتضن يدي عابرين الميدان؟ أغلقت اللابتوب وذرعت الصالة لثوانٍ قبل أن أعيد فتحه. أشعلت سيجارة وفتحت الإيميل.

So today I read about the panopticon gaze in Kundera's novel, how you are always being watched, very closely; by the government, by your lover, by someone. You are either the see-er or the seen. I also read about how you can hear the ocean wherever you are on the planet. The waves are named 'Love' waves. I'm not joking. It's named after someone and I can't remember the details.

Last night a friend wrote to me about how we are interested in a culture of nihilism and aggression and we expect to be provided with the exact opposite (like we deserve it), or as if we even have the capacity for it–that is, kindness and meaningfulness and tenderness.

What's your favorite color? Do you remember the scene in Short Term 12 where each one would describe how they feel with a color and what it stands for? Green: just fine, grey: whatever, etc. I don't know what stands for what, but I'm always blue. Blue is how I feel and what I want and where I wind up. My eyes are a magnet for anything blue. We are poetic but life isn't, or vice versa.

I'm blabbering. What was it that I wanted to say? I met a guy, nothing like you, not in an any meaningful way. I was sitting with a colleague at work and she was talking about how miserable she is and how pointless her days are. There's no end to the possibilities of the human condition. He came along, and it felt right, just as it should feel. Do I care if you hate me? I do, but I won't stop you.

Today I found out that the police is looking for someone I met back in November, in Sinai. What I remember about him is he was very handsome and had a very attractive British accent. What do we do with all this information? What if I don't have the stomach for it?

You live in a place that is unbelievably brutal, shameless. Yet it is unbearably familiar. I remember when we talked about Cairo and when you told me about the old lady in the pool. You are poetic, Cairo isn't. Or Cairo is and you aren't.

I love you, Zuzu.

Is there a landscape big enough to fit the everyday? To fit the self? The malaise? The confusion? The information? The fragility? The beauty?

You know what's the best part about Peter Pan? The lost boys.

Stay well.

Aya[1]

---

(1) قرأت اليوم عن حملقة البانوبتيكون في رواية كونديرا، كيف أننا دائمًا مراقبون عن كثب؛ من الحكومة، من عشاقنا، من شخص ما. أنت دومًا رائي أو مرئي. قرأت أيضًا عن كيف يمكننا أن نسمع المحيط أيًا كان موقعنا على الأرض. هذه الأمواج تسمى أمواج «الوف». لا أمزح، مسماة على اسم أحدهم ولا أتذكر التفاصيل.

في الليلة الماضية كاتبني صديق عن اهتمامنا بثقافة العدمية والعنف بينما نتوقع أن يزودنا العالم بالعكس كأننا نستحقه أو كأننا نمتلك القدرة حتى على استيعاب تلك الأشياء... الحنان، الامتلاء بالمعنى والرقة.

ماهو لونك المفضل؟ أتذكر هذا المشهد من «شورت تيرم 12» حينما يصف كل واحد من الحضور كيف يشعر تجاه لون وما يمثله؟ الأخضر مثلًا: على ما يرام، الرمادي: أيًا يكن، وهكذا. لا أستطيع تبين ما يمثله الأمر، لكنني زرقاء على الدوام. الأزرق هو ما أشعر به، ما أريده وما أنتهي إليه. عيناي مغناطيسان لكل ما هو أزرق. نحن شاعريون،

فكرت إن كان يتعيّن عليّ الرد. آية صاحبت، ليس هناك شك في الأمر. كنت غاضبًا، بشدة، ورائقًا أيضًا. نظرت إلى الصالة. بدت أوسع، كأن ذكراها كانت شيئًا ماديًا يحتل مساحة من الفراغ. كان النوم أبعد ما يكون عن عيني. هل أرد؟ لا، انتهى الأمر. كنت أعلم أنها ستنتظر ردي، ستنتظر ردًا شاعريًا لطيفًا كتلك الرسائل التي كنا نتبادلها في عهد ما قبل اجتماعنا. لم أجد في نفسي الطاقة للطف ولا لسواه. بتنا اثنين يا آية، ما جمعنا يومًا انتهى مرة واحدة وإلى الأبد؛ تلك الطرق التي قطعناها مرة معًا صار لزامًا أن نقطعها فرادى. كانت دلال تحتل خيالي؛ كنت أفكر في وجهها مدفونًا في كفيها. نهضت وصورتها لا تفارقني، رقدت

لكن الحياة ليست كذلك، وربما العكس هو الصواب.

أنا أهذي، ما الذي أردت قوله حقًا؟ لقد قابلت آخر. لا يشبهك، ليس بأي طريقة مفهومة. كنت في العمل بالكلية، كانت صديقتي تتحدث عن بؤسها وكيف تمضي أيامها بلا هدف. لا نهاية لاحتمالات الظرف البشري. دخل علينا وبدا الأمر وكأنه وحده الصائب، كما يجب أن تكون الأمور. هل أبالي إن كرهتني؟ نعم، لكنني لن أمنعك.

اليوم علمت أن البوليس يبحث عن شخص قابلته في نوفمبر في سيناء. كان وسيمًا للغاية ولديه لكنة بريطانية جذابة. ماذا نفعل بكل هذه المعلومات؟ وكيف يكون الحال إن لم تكن لدينا المعدة لهضمها؟ نحن نعيش في مكان وحشي بشكل لا يصدق وبلا خجل. لكنه مألوف بشكل لا يحتمل. أتذكر حين تحدثنا عن القاهرة وأخبرتني عن السيدة العجوز في المسبح؟ أنت شاعر ولكن القاهرة ليست كذلك. وربما القاهرة شاعرة وأنت لست كذلك.

أحبك يا زوزو.

هل هناك تضاريس كافية لاحتواء اليومي؟ لاحتواء الذات؟ الضيق؟ الحيرة؟ المعلومات؟ الهشاشة؟ الجمال؟

أتعلم ما هو الجزء الأفضل بشأن بيتر بان؟ الفتية الضائعون.

كن بخير.

آية

على فراشي ووضعت رأسي على الوسادة، وصورتها لا تزال أمامي. بقيت نصف ساعة على حالي هذه، أفكر في دلال تواسيني؛ أفكر حينما يقضتها مرة أبكي لها أنني أفتقد آية، حينما أخبرتها أنه ربما من الحكمة أن نتكلم فترة خوفًا من الانجذاب إلى ما نجهل، حينما تعاهدنا أن نبقى أصدقاء أيًا كان ما سيحدث. نهضت من رقدتي وقد امتلأ رأسي ضجيجًا. انتقيت قميصًا صوفيًا وارتديته ونزلت إلى الشارع. مررت بعربة فول، مررت بسيارة خضر، مررت بأتوبيس رحلات. اجتزت شوارع عشوائية وتعثرت في حجر بارز من الأرض وأثرت ضحك فتيات في طريقهن للمدرسة، ووجدت نفسي أمام بيت دلال.

كان باب البناية مغلقًا، وأمام الباب القطة ذاتها التي هربت مني، تنظر تجاهي وتموء كأنما تطلب شيئًا. تقدمت باتجاه الباب وفتحته، خطوت عدة خطوات ونظرت خلفي باتجاهه لأجد القطة تتسلل ورائي بحذر. نهبت سلالم البيت صعودًا حتى توقفت أمام باب بيتها. وضعت أذني على الباب، وضعت إصبعي على الجرس، سمعت صوت خطوها. وقفَت وراء الباب، نظرَت، ثم عادت لتختفي في الداخل. رننت الجرس ثانيةً. فكرت أنها لن تفتح، لكن الباب انفتح فجأة وارتمى بوجهي المعطف قبل أن يُغلق مرة أخرى. لمحتها في تلك الثانية بروب استحمام وشعر مبتل. دققت الجرس وبإصرار، انفتح الباب فتحة ضئيلة وإن ظل مغلقًا بسلسلة معدنية. رأيت قطاعًا من وجهها يظهر من وراء الباب؛ عينيها البنيتين محمرّتين، تكادان تنفجران، لم أعلم أكان من البكاء أم من قلة النوم. وددت لو مددت يدي لأحيط وجهها، لكنها بدت وكأنها ستقضم أصابعي لو حاولت.

- عايز إيه؟

- عايز نتكلم.

- مافيش حاجة نتكلم فيها.

- ليه؟

- عشان مش حينفع نستهبل.

- أنا مش عايز أستهبل.

- أمال عايز إيه؟

كنت لأكذب لو أخبرتها أنني أعرف ما أريد حقًا، لكني كنت أعرف. كنت أرغب في أن أريح رأسي على فخذها، وذلك العناق الذي أهدتنيه على جانب الطريق. كنت أرغب لو حكيت لها ألف حكاية عشوائية لم أكن قد حكيتها بعد عن نفسي، وأن أستمع إلى ألف حكاية عشوائية لم تحكها بعد عن نفسها.

- أنا خايف.

- وأنا كمان خايفة.

- تحبي أمشي؟

- عايز تدخل؟

- آه.

أغلقت الباب بغتة ولم يبدُ أنها ستفتحه ثانية. سألت نفسي، هل الأفكار رائقة في ذهني حقًا؟ كنت أعلم شيئًا واحدًا، أنني لا أريد العودة إلى البيت، ليس الآن، ربما للأبد. ربما البيت هو حيث تكون دلال. ماذا عساني فاعل الآن وقد أغلقت الباب في وجهي؟ هممت بالمسير تجاه الدرج قبل أن أسمع صوت صلصلة قفل الباب ينزاح. التفت فرأيت الباب ينفتح، اقتربت ودفعته لأدخل. لم تكن دلال بانتظاري خلفه. نظرت باتجاه مدخل الشرفة قبالة الباب. الشمس مشرقة والضوء قوي. أغمضت عيني، خطوت للداخل، وأغلقت الباب ورائي.

شكر

الرسالة الإنجليزية في قصة «لا أحد يرثي لقطط المدينة» مقتبسة جزئيًا من رسالة وُجهت إلى الكاتب عبر الصديقة سهى محسن وقد وافقت مشكورة على تضمينها في القصة.

هذا الكتاب لم يكن ليتم لولا المعونة الفعالة التي تلقاها الكاتب من ياسر عبد اللطيف ورحاب بسام ودنيا كمال القلش ومحمد ربيع وهلال شومان وأحمد عوني.

كما يود الكاتب أن يشكر حسين الحاج وزينب مجدي وعمرو ومحمود عزت وأيتن أمين وشريف أحمد وأحمد الغنيمي وشهاب فخري وآية نصار ويمنى خطاب وأحمد جمال سعد الدين ودينا الهواري ومحمد عادل ومحمد جبر وبلال علاء ونهلة عوض ومحمود بلال وأحمد رجب وأحمد خير الدين وبهاء عز العرب ونشوى معتوق وأحمد فتح الباب ومحمد فريد ومحمد إبراهيم ومحمد إسماعيل وعبدالله كمال ومحمد طارق وأحمد عبد الوهاب وسارة شنن وفرح برقاوي ونادين غبريال وبكرية مواسي وبسمة أباظة ورقية جمال الدين وداليا عطا ومروان القلموش على صبرهم على قراءة المسودات المختلفة وإبداء الملاحظات.

الفهرس


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm


"خطر لها أن جميع من في الشارع
هم مثلها، مطلقات في طريقهن
لالتقاط حاجياتهن القديمة من بيوت
الزوجية المهجورة. أمتعتها الفكرة؛
مصر... بلد التسعين مليون مطلقة.
ابتسمت في مرارة بينما تنظر
جوارها إلى فتاة في العشرينات تقود
سيارة كورية رخيصة وتضع على
عينيها نظارة شمس سوداء، خمنت
أنها تلبسها لكيلا تبدو دموعها هي
الأخرى."
ست قصص. ست علاقات تجري
في قاهرة ما بعد صيف ٢٠١٣
باحثة عن مستقر لقلقها.
ولا سبيل إلا بالاتكاء على الذات
والمغامرة باحتضان الوحدة،
أو الأمل العسير.
التنوير
المورد الثقافي
Culture Resource